

مَجْمُوعَةٌ زِيَادَةٌ

الكلمات والسيارات

// مؤسسة نوفل
بيروت، لبنان

الکلمات وَالسَّارَات

جميع الحقوق محفوظة للناسخ

الطبعة الثانية

١٩٨١

© مؤسسة نوفل ش.م.م.

بيروت - شارع العثماني - بناية نوفل - ص.ب. ٢١٦١ - ١١
تلفون: ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٢٩٤ - تلکس: ٢٢٢١٠ لبنان

حفلة « الكوخ الأخضر »،

لا أجرؤُ على رفع كأسِي لأنَّ من رفع كأسه في مثل هذا الموقف وَّجَب عليه تأدية الثمن كلاماً بليغاً . وأنسى لي البلاغة ، أنا التي يتمتَّع لساني في اللفظ العربيّ البسيط ؟ وكيف أجيءُ بالكلمة المُحكِّمة أنا التي لا أعرف شيئاً ، وقد فاجأتني عنايتكم بقولٍ جميل منظومٍ ومنثورٍ ، وبثناءٍ قد يستحقه عالمٌ قضى عشرات الأعوام في البحث والتنقيب والإنتاج ، ولكنهُ يدهش فتاةٌ ما زالت عاكفةً على كتب التلمذة الأولى ، تستظهر من الدروس ما يستظهره طلبة المدارس الابتدائية تقريباً ، وتهيء فروضاً اعتاد التلاميذ تهيئتها خلال العطلة الصيفية ، لم يُبين هذا الكوخ لهذه الفروض وتلك الدروس فحسب وإنما أردتُ أن يكون لي أيضاً خلوة أحلمُ بها وألعب وألهو . ولكنكم تجمهرتم قربه ودشتموه كما تدشَّن الصُّروح الكبيرة ، ورفعتم فوقه علماً يخفق بين الغصون ، وأثرتم حوله في هدوء الغياض تصفيقاً وإنشاداً .

أقيمت في الحفلة التي أقيمت في منتصف شهر آب (أغسطس) سنة ١٩١١ في ضهور الشوير بلبنان .

فلن فعلتم ذلك ؟ ولماذا أنتم فاعلون ؟
لو علمتُ أن الاحتفاء بي وحدي مجردة لحبَسَ الخجلُ
كلمة الشكر على شفتي ولاختلجت يسدي وهي تحمل
الكأس . ولكنني أعلم أن الغاية من هذا التكريم أبعد من
أن تُحصر في فتاة ، وأعظم من أن تُوجه إلى فرد . وإنما
الغاية منه تشجيع الفتاة الشرقية عموماً التي تقولون لها في
شخصي إن في الشرق روحاً جديدة تطلب نهضتها ، وإن
عيونكم ترقبها وقلوبكم ترعاها منتظرة ما ينم عن رغبتها
في النهوض أو عن مجرد ميلها إليه ، لتمدوها بالقوة
والتنشيط الممكن .

دفعتمكم هذه الروح الجديدة إلى تحيُّن الفرص فاتخذتموني
واسطة ، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال . اتخذتموني
واسطة ، وأردتم أن يكون هذا الكوخ حَجراً معنوياً
في صرح النهضة النسائية ، ورمزتم بهذا العَلَم إلى راية
تحرير العقول من الخرافات والأوهام ، وما كانت أصوات
الهِتاف إلا أصوات نفوس تحثُ المرأة والفتاة العصرية على
السَّير إلى الأمام . « إلى الأمام ! » هذا ما أردتم أن
تقولوا .

وأنا التي اتخذتموني واسطة لإظهار هذه الرغبات الحية
والمواطف النبيلة أراني الساعة ممثلة بكرامة وأهمية لم
أشعر بها من قبل . تلك نتيجة المسؤولية دواماً . وغداً
عندما أعبرُ عتبة هذا الكوخ الصغير التي جعلته حفاوتكم

عظيماً ، سأنظر إليه بعينين جديدتين فيتخذ انفرادي فيه معنى أسمى وأجلّ من أحلام الفتاة وأهوائها وألماعها . لأنكم نبهتموني إلى أنه على فتاة هذا الجيل أن تهتم حدود شخصيتها الفردية الضئيلة لترى المجموع ممثلاً في ذاتها : فنتفع لتفعمه ، وتسير التسيّره ، وترتقي لترقيّه .

كلّم تقريباً ، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال ، من أبناء سوريا الذين انطلقوا إلى ما وراء البحار باحثين عن ميدان واسع يربّون فيه قوى نشاطهم وذكاءهم الفطريّ . وما قد أقيمت ، خلال إقامتكم القصيرة في بلادكم ، شرارة الحياة في دائرة الحركة النسائية . ستعودون أتم إلى ديار استوطنتموها ولكن الشرارة هنا لن تخبث .

وبالشخصية الجديدة التي أنلتكموني أرفعُ الجبهة عالياً وأرفع الكأس بيد ثابتة ، والفخر فيّ يتغلب على التأثر والخجل ، وأشرب نخبكم جميعاً . شاكرةً اللجنة التي نظّمت هذا الاحتفال ، والأمير قبلان أبي المرح الذي تصدّره ، والخطباء الذين جمّلوه ببيانهم ، والسادة والسيدات الذين زانوه بمحضورهم . ولما كان من أهم دواعي سروري أن أرى مصر وسوريا متحاذيتين في هذا الاجتماع ، وأن أسمع الخطيب المصري يتلو الخطيب السوري مشتركين في الهمّات لمصر وسوريا على هذه القمة البعيدة ، فلإني أشرب أيضاً نخب القطرين الشقيقين في هذه الجرعة الواحدة : لتحي مصر وسوريا ! ولتحيوا جميعاً !

حفلة بكفيا

لساني قاصرٌ لا يهتدي إلى الكلمات المعبرة عما يهزني
من عوامل التأثر والشكر لأهل هذه البلدة الجميلة الذين
خصوني بالثقات رقيتي فأقاموا في هذا العيد العظيم هذه
الحفلة الأنيقة التي جعلت العيد عندي عيدين . ويا ليت لي
بعض ما عند حضرات الخطباء والشعراء من الفصاحة
والبراعة ، إذن لقابلت درر أقوالهم بالمثل ، ولما وجدتني
متلثمة في هذا الموقف .

لو كان عندي أزهار ، أيها السادة والسيدات ، لقدمت
إلى كل واحد وواحدة منكم زهرة تنطق بنضرتها عن
شعوري . لكن الأزهار عندي قليلة جمعت في هذه الطاقة
الواحدة ، وأنتم كثيرون . وزهرات الحداثق تعيش يوماً
وتموت في غده ، أما زهرات العواطف فتبقى على نضرتها
دواماً . فاقبلوا إذاً أزهار شكري القليي وأسمى عواطف
امتثاني . ودوموا سعادة يمرُّ بكم هذا الموسم عاماً بعد عام
وأنتم أبدأ صاعدون في معارج العز والفلاح .

* * *

ألقيت في الحفلة التي أقيمت مساء ١٥ آب (اغسطس) يوم
عيد العذراء) سنة ١٩١٢ في بكفيا ببلنات .

أيها السادة والسيدات ،

أجل ، شرقنا جميل ولكن الروح الشرقية التي تحييه
أجل منه . ومياه الشرق عذبة ، وأعذب منها العواطف
الغزيرة المتدفقة في صدر الشقي . وكل ما في الشرق من
جبال وأودية ، من مروج وسهول ، من أنهار وأشجار بهي
بهج ، وأهبي من كل ذلك وأبهج ، تلك المكارم الكامنة في
ثنايا الروح الشرقية . والتاريخ الشرقي تاريخ مجد وفخر ،
ولكن هناك شيئاً أعظم منه وهو الذكاء الشرقي الذي
أوجد التاريخ .

هلاً ذكرتم يوم كانت بلادنا نبراس الأمم وقائدة
الشعوب ؟ هلاً ذكرتم يوم كانت بلادنا مهد العلوم والصنائع
والنون ؟

على شواطئنا هذه ، على شواطئ فينيقيا القديمة ،
ترعرع الفكر البشري وأطل الرقي من بين غيوم الجهل
والخمول . كان البحر قبل الفينيقين عصياً فعالجته همهم
القعاء فأطاع ، وسيروا فيه سفنهم طولاً وعرضاً حاملين
إلى بلاد قامت على شواطئهم ثمرة أتعابهم الفكرية واليدوية
ومباديء المعارف الاجتماعية .

انحنى الفينيقيون على الأرض فشقوا أديمها مستخرجين
من أحشائها الثروة والغلل ، وتصرفوا بالمياه الضائعة في
جوفها فاستخدموها لتعزيز الزراعة . لمسوا الصخر فلبسوا

صاغراً ، وحدقوا في العناصر فالتقادات لهم ، وما زالوا يكذبون ويستنبطون حتى وضعوا للمستقبل قاعدة ارتقاء متينة .

نعم ، هنا ابتسم الرقي ابتسامته الأولى ، وهنا خطا التقدم خطوته الأولى ، ومن هنا نقلت مبادئ العلوم والفنون والصناعة والتجارة إلى اليونان ، إلى الرومان ، إلى العالم .

قبل فينيقيالم يكن يعرف أهل الحبشة قيمة ما عندهم من عاج ومواد ثمينة أخرى ، فسارت إليهم قوافل الفيثيين فانتبهوا وتيقظوا .

قبل فينيقيا لم يعرف أهل الجزر البريطانية معنى التجارة ، وظلّوا جاهلين بوجود معادن بها يقوم غنم حتى ذهب إليهم قدموس التاجر الفيثي على ظهر سفيلته السوداء ، فألفتهم إلى ما لديهم وعلمهم أساليب التجارة . قبل فينيقيا كان الفكر البشري محدوداً مقيداً عاجزاً عن إبراز نفسه إلى عالم الوجود لصعوبة الكتابة الهيروغليفية . فلخّس الفيثيون تلك الرسوم الهيروغليفية المعقدة في الحروف الأبجدية ، جاعلين لكل مقطع صوتي حرفاً . ومن الحروف تتألف الكلمات ، ومن الكلمات تتركب الجمل ، وبين الجملة والجملة على صفحات الأوراق تتجلى الأرواح ، وتخلق القلوب ، وتسيل الدموع ، ويسطع الفكر الإنساني بأنواره الباهرة .

كذلك حملت فيلقيا إلى اليونان مبادئ الفنون المختلفة،
وعلمت الأمم أساليب الاستعمار . فهل نحن ذاكرون أنه
علينا أن نستخرج من مستقبلنا تاريخاً لا يجعل حياله
التاريخ القديم ؟

* * *

لقد قال عننا أهل الغرب ما قالوا فدعهم يفترون !
إن لكل أمة خطة سنيتها أقدار الحياة ، وكل ما في
الكون متموج إلى الأبد : فالأرض متموجة وأمواجها
الجبال والسهول ،

والمياه والبحار متموجة وأمواجها دوائر ودوام ومد
وجزر ،

والاثير يتموج ناقلاً في تيهه الفلك الأصوات والأنوار
والحر والبرد ،

وفي المادة تتموج العناصر الكيماوية تموجاً عجيباً ،
والنفس الإنسانية متموجة بمواطنها وأفكارها ورغائبها
وميوها .

وكذا أحوال الشعوب تصعد وتنحدر ، وترتقي وتنحط ،
وتتقدم وتتهقر . فما من أمة بلغت شأواً من الحضارة
بعيداً إلا عادت لتراجع أو تتوقف عن المسير زمنياً فيه
تسبقها الأمم الأخرى . غير أن هذه الموجات العمرانية
الواسعة لا تراها وتثبتها إلا العصور البعيدة .

توقف الشرق زمنًا فقال الغرب : « هوذا الشرق في
 'سبات عميق يشبه الموت » . لكن لم يلبث أن نفص الشرق
 عنه أكفان الهوان ونهض نهضة أدهشت من كان يحسبنا في
 غفوة لا تعقبها يقظة . فبلغت اليابان اليوم مبلغ أرقى
 الأمم في علومها وصناعاتها ونظاماتها ، وفي تأهبها لدفع
 الطوارئ فملكنا ناصية القوتين الهائلتين : الأدبية العلمية
 والوحشية الحربية . وما هي الصين المائجة بسكانها كالنمل
 تنهض بثورتها الحاضرة ، بعد جمود طويل ، نهضة يرجى
 منها كل خير . هذا في الشرق الأقصى ، أما في الشرق
 الأدنى فكلنا يذكر الثورة العثمانية وإن لم تأتنا بكل ما
 توقعناه من حسن النتائج . والخلاصة : إن المطلع على تاريخنا
 منذ نصف قرن ، يعلم أن الفرق بين ما كنا عليه وصرنا
 إليه كبير .

* * *

الثورة العثمانية ! تلك الحركة العظيمة غير الدموية التي أذهلت
 الغرب ، لم نستفد منها كثيراً لأن الأمة لم تشارك فيها
 اشتراكاً محسوساً ، بل كانت حركة عسكرية قصير التبدل
 فيها على هيئة الحكومة ، لكنها لم تغير من أخلاقنا شيئاً .
 يجب أن تكون الثورة فردية داخلية قبل أن تصير قومية
 عومية : ثورة في الأفكار ، ثورة في المبادئ ، ثورة في
 الاحتياجات ، ثورة في المطالب ، ثورة في كيفية المعيشة .

يجب أن نغيّر طبائعنا قبل أن نغيّر حكّامنا ، يجب أن يعكف كلٌّ على إصلاح نفسه قبل أن يتصدى لإصلاح الجمهور ، يجب خصوصاً أن نفهم معنى التضامن ، وأن نتكاتف ليس لغايات شخصيّة بل للخير العام ، والمصلحة العامة التي تشمل العدو والصديق والبعيد والقريب ، بل تشمل أبناء الوطن على الإطلاق . والتضامن من ارتقاء الجمهور بمثابة الاعتماد على النفس من ارتقاء الفرد . وما أقدر الذكاء والتضامن إذا ما مشيا جنباً إلى جنب !

* * *

والآن وقد فرغتُ من الكلام فأعزُّ ما أتمنى هو أن أرى أبناء الوطن مُتّحدي الكلمة ، موحدي الغاية ، مترابطين بالتضامن والتعاون ليعيدوا للشرق عزّه الغابر ومجده القديم .

وتحيّي الأخيرة إلى لبنان . لبنان ا يجب أن أُلحني لهذه الكلمة العذبة المحبوبة ،

لبنان ! هي كلمة واحدة ، هي لفظة صغيرة ، ولكن كل الحب وكل الرجاء فيها لأنها اسم الوطن الغالي .

لبنان ! الأمواج الزرقاء الطرية تلثم قدمه ، والثلوج البيضاء الطاهرة تكلّل جبهته ؛ في صدره قبور الجدود

والأحباب ، والتربة منه تعطف على بقاءهم عطف الأم على
رضيعها . وعلى أكتافه ينتقل أبناؤه الأحياء أقوياء بالهمة
والنشاط والأمل . ومن هؤلاء ينتظر شبيبة ذكية مفكرة
عاملة ، ومنهم ينتظر مستقبلاً سعيداً وحياةً ومجداً .
فليحي لبنان ، وليحي الشرق !

تكريم خليل مطران

الشاعر الجعلبيكي

١

في مدينة بعلبك ١١٢ قبل الميلاد

جلس الأمير على عرشه الذهبي المحاط بالمسارج المشتعلة
والمباخر المتقدمة ، فجلس القواد والكهّان عسن يمينه
وشماله ، ووقف الجنود والعبيد أمامه وقوف الأنصاب أمام
وجه الشمس .

وبعد هنية وقد انتهى المرتلون من إنشادهم ، وتوارت
أنفاسهم بين طيَّات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء أمام
الأمير ، وقال بصوت تهدجه ضآلة الشيخوخة :

أرسل هذه المقالة كاتبها إجابة لطلب سليم سر كيس ، الذي
دعا شعراء العالم العربي وكتّابه إلى الاشتراك بتكريم خليل مطران ،
بإرسال لفئات أقلامهم لتتلى في الحفلة التي ستقام له لمناسبة الإنعام
عليه بالوسام الجعدي الثالث . وقد تليت هذه المقالة مع التعليق عليها
في تلك الحفلة الفخمة التي أقيمت في سراي الجامعة المصرية مساء
٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ .

« أيها الأمير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم
من حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب جديدة لم نسمع
قط بمثُلها . فهو يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمص الأرواح
من جسد إلى جسد ، وانتقال النفوس من جيل إلى جيل
حتى تبلغ الكمال ، وتصير إلى مصفّ الآلهة . وقد جاء الليلة
طالباً الدخول عليك ليبسط تعاليمه أمامك » .
فهر الأمير رأسه ، وقال مبتسماً :

« من بلاد الهند تأتي الغرائب والمعجائب فأدخلوه لنسمع
حجّته » .

ولم تمر دقيقة حتى دخل القاعة كهل أسمر اللون ،
مهيّب المنظر ، ذو عينين كبيرتين وملامح مُنفرجة ، تتكلم
بلا نطق عن أسرار عميقة وأميال غريبة . وبعد ان انحنى
مستأذناً ، رفع رأسه وتلمّعت عيناه وطفق يتكلم عن
بدعته ، مظهرأ كيف تلتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل
مرتقية بعوامل الوسط الذي تختاره ، متدرّجة بتأثيرات
الأموال التي تختبرها متأيلة مع الأيجاد التي ترفعها وتقيها ،
نامية مع الحب الذي يسعدها ويشقيها ... ثم تطرّق إلى
كيفية انتقال النفوس من مكان إلى مكان ، باحثة عما تحتاج
إليه من الكماليات ، مكفّرة في حاضرها عن ذنوب
اقترفتها في ماضيها ، مستغلّة في بلد ما زرعتهُ في بلد
آخر .

ولما طال الكلام وقصد بدت على ملامح الأمير سياه

الملل والضجر ، اقترب كبير الأمراء من الحكيم وهمس في أذنه قائلاً « كفى الآن فدع البحث إلى فرصة ثانية » .
فتراجع الحكيم إلى الوراة وجلس بين الكهان مطبقاً أجبانه كأن عينيه قد تعبتا من التحديق في خفايا الوجود وأسراره .

وبعد سكينه شبيهة بغيبوبة الأنبياء ، تلفتت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ، ثم سأل قائلاً « أين شاعرنا فقد مرّ زمن ولم نره .. ماذا حلّ به وكان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ » .

فقال أحد الكهان « قد رأيته منذ أسبوع جالساً في رواق هيكل عشروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنه أضع بين الغيوم قصيدة من قصائده » .

وقال أحد القواد « قد رأيته بالأمس واقفاً بين أشجار السّرّو والصفصاف ، فحييته ولم يرد التحية بل ظلّ غارقاً في بحر أفكاره وأحلامه » .

وقال رئيس الحصيان « قد رأيته اليوم في حديقة القصر ، فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه ، تراود الدموع أجبانه وتتلاعب الغصّات بأنفاسه » .

فقال الأمير بصوت تلاحقه اللفهة « إذهبوا وابعثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد أشغل بالتنا أمره » .

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر ، وظل الأمير وأعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شمعت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة . وبعد هنيهة عاد رئيس الحصيان وارتمى على قدمي الأمير كطائر رماه الصياد بسهم ، فصرخ به الأمير قائلاً « ما الخبر . ماذا جرى ؟ » .

فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً : « قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر » .

فانتصب الأمير وقد علت سحنته سياه الحزن والكدر ، ثم خرج إلى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا أطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والرمان ، جلست لهم أشعة الشرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الأعشاب كفضن ورد ذابل .

فقال أحد الأعوان « أنظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبها وأحبه فتعاهدا على أن يموتا معاً » .

وقال أحد القواد « لم يزل يحدق في أعماق الفضاء كعادته كأنه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف » . وقال رئيس الكهان مخاطباً الأمير « غداً نقبره في ظلال هيكل عشتروت المقدسة . فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتیان قصائده ، وتنتثر العذارى الأزهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً فليكن احتفالنا بدفنه

عظيماً .

فهزّ الأمير رأسه دون أن يحوّل عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطء « لا . لا ، لقد أهملناه إذ كان حياً يملأ جوانب البلاد من أشباح نفسه ، ويعطر الفضاء بأنفاسه ، فاذا ما أكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلهة وتضحك منا عرائس المروج والأودية .. ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه ، وابقوا قيثارته بين ذراعيه ، وإن كان بينكم من يريد أن يكرّمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأنّ الأمير قد أهدى شاعره فمات كئيباً وحيداً منفرداً » .

ثم التفت حوله وزاد قائلاً « أين الفيلسوف الهندي ؟ » . فتقدّم الفيلسوف وقال « ها أنذا أيها الأمير العظيم » . فقال الأمير « قلّ - قل أيها الحكيم - هل ترجعني الآلهة أميراً إلى هذا العالم وتعيدهُ شاعراً . هل تلبس روحي جسدي ابن ملك عظيم ، وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير ؟ هل توقفه النواميس ثانية أمام وجه الأبدية لينظّم الحياة شعراً ، وتعيديني لأنعم عليه وأفرح قلبه بالموهب والعطايا ؟ » .

فأجاب الفيلسوف قائلاً « كل ما تشتاقه الأرواح تلبغه الأرواح . فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً » . فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه ، ثم مشى نحو

قصره مفكراً في أقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله
« كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح » .

٢

« في مصر - القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد »

طلع القمر وألقى وشاحه الفضي على المدينة ، وأمير
البلاد جالس في شرفة قصره ، ينظر إلى الفضاء الصافي
مفكراً في مآتي الأجيال التي مرت متتابعة على ضفاف
النيل ، مستوضحاً أعمال الملوك والفاحين الذين وقفوا أمام
هيبة أبي الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التي
سيرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة أفكاره وانبسطت مسارج أحلامه ،
التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال « في نفسنا الليلة ميميل
إلى الشعر فأنشدنا شيئاً منه » .

فحنى النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي ،
فقاطعه الأمير قائلاً « أنشدنا شعراً أحدث عهداً » .
فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردد أبياتاً لأحد الشعراء
المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقال « أحدث عهداً ، أحدث
عهداً » .

فانحنى النديم للمرة الثالثة وأخذ يترنم بمقاطع موشح
أندلسي .

فقال الأمير « أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر » .
 فرفع النديم يده إلى جيبته كأنه يريد أن يستحضر
 إلى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر ، ثم برقت عيناه
 وتهلّل وجهه ، وطفق يرتل أبياتاً خيالية ذات رنة
 سحرية ومعاني رقيقة مبتكرة ، وكنائيات لطيفة نادرة
 تجاور النفس فتملأها شعاعاً ، وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً .
 فحدّق الأمير في نديمه ، وقد استهوته نغمة الأبيات
 ومعانيها ، وشعر بوجود أيدٍ خفية تجذبه من ذلك المكان
 إلى مكان قصي . ثم سأل قائلاً « لمن هذه الأبيات ؟ » .
 فأجاب النديم « للشاعر البعلبي » .

— الشاعر البعلبي !

الشاعر البعلبي .. كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع
 الأمير وولدتا في داخل روحه النبيلة أشباح أميال ملتبسة
 بوضوحها ، قوية بدقتها .

الشاعر البعلبي .. إسم قديم جديد أعاد إلى نفس
 الأمير رسوم أيام منسية ، وأيقظ في أعماق صدره خيالات
 تذكارات هاجمة ، ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا
 الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله
 القواد والكهان والوزراء !

واحت هذه الرؤيا أمام عيني الأمير مثلما تتوارى
 الأحلام بمجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعا ذراعيه على
 صدره مردداً آية النبي العربي : « وكنتم أمواتا فأحياكم

ثم يمتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون .
ثم التفت نحو نديمه قائلاً « يسرنا وجود الشاعر
البلعبي في بلادنا وسوف تقربه وتكرمه » .
وزاد بعد دقيقة بصوت منخفض « إنما الشاعر طائر
غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية ويحيى هذا العالم
مفرداً فإن لم تكرمه يفتح جناحيه ويعود طائراً إلى
موطنه » .

انقضى الليل ، فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ،
ولبس قميصه المنسوجة من أشعة الصباح ، ونفس أمير
البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبه ، وخفايا الحياة
وأسرارها .

جبران خليل جبران

نيويورك

التعليق على الشاعر البعلبكي

قدّم سليم سرّكيس هذا التعليق الذي نشره في مجموعة ما أرسل إليه لتكريم خليل مطران بما يلي :

« لما جاءتني مقالة جبران خليل جبران نزيل نيويورك ، سألت الآنسة مي أن تتلوا في الاحتفال فأجابت طلبي وبعد أن فرغت من تلاوة المقالة عادت فذيلتها بكلمات صاغها قلمها وأبدعها خاطرهما ، ولم يكن التعليق الذي ألقته حضرتها قد جاءني عند تقديم الخطبة الأولى للطبع فبادرت إل نشر كلمات الآنسة مي في هذا المكان » قالت :

* * *

هنا انتهيت من تلاوة ما كتبه الشاعر اللبناني نزيل نيويورك . إن الأمير فعل الآن ما ندم الأمير القديم على إهماله . - فجاء إحسانه إلى الشاعر البعلبكي مصداقاً لقول الحكيم الهندي : « كل ما تشاقه الأرواح تبلغه الأرواح » .

وصدّى الكلمات الأخيرة التي تموجت في مسامعكم ، أيها السادة ، ما زال يرنّ على أبواب فؤادي مثيراً فيه

ميلا إلى الكلام ، منبهاً في أعماقه شبه قوة اكتفت
بالاصفاء حيناً وهي تحاول الانقلاب إلى همس ، إلى نغمة ،
إلى صوت إنسي^١ ينقل إلى عالم السمع سرائر التأثيرات
النفسية .

في هذا الاجتماع البهي^٢ لم نسمع إلا أصوات الرجال
مادحة ، مقرظة ، معجبة ، شاكرة ، مفتخرة . وصوتي -
الصوت الوحيد الغريب بين تلك الأصوات القوية الجميلة -
إنما ارتفع ليقوم مقام صوت رجل غائب . والآن أريد
أن أتكلم بنفسي وبصوت جنسي .

أريد أن أضم^٣ إلى صوت الفكر العظيم الذي ترتج^٤
لديّ دقاتك الفضاء ، صوت القلب الحفي^٥ المرتجف الذي
ترتعث لمروره ذرات الكيان ، وتطرب لصداه خفايا
الأرواح .

لقد أهمل الأمير القديم شاعره فمات وحيداً كئيباً ،
لكن الأمير عطف على الشاعر البعلبكي فأحيا بعطفه هذا
آمالنا بتقدم الآداب وارتقاء الأفكار والعواطف . النبوغ
قوة سامية يهبها الله من يشاء من أفراد الأمة ؛ النبوغ
شعلة إلهية تضيء ظلمات الفوضى التي نجد آثارها في كل
زمان ومكان لتضارب الآراء واختلاف المذاهب الفكرية .
غير أن^٦ تلك القوة السامية تذبل وتجف وتموت إن لم
يرطبها إعجاب الجمهور . الشعلة الإلهية التي تحاول ملاحظة
ما يحيط بها من الظلمات الغدافية تنطفئ^(١) إن لم تلتق نسيم

استحسان تتغذى من عنصره السري وتمو يجوره الناري .
وإن وجد في تلك الشعلة قوة ذاتية تغذيها وتنميا إلى
حين فهي لا تلبث حتى تحرق نفسها بنفسها مطفئة لهيبها
بدموعها ، مييدة حياتها بيأسها ، وكانت الشعوب بذلك
خاسرة .

فاذا كان بينكم ، أيها السادة ، من يريد إكرام النبوغ
الذي نحييه اليوم وتربية عاطفة الشكر في صدور الرجال
فليذهب إلى بيته ويعلم أبناءه ترتيل القصائد الخليلية ،
ويضع بين شفتي صغاره رنات تلك الأسجاع الموسيقية .

* * *

والآن لدي باقتان : إحداهما صغيرة أنيقة ، جمعت
زهراتها الزرقاء النحيفة على ضفاف نهر الإخلاص الجاري
في سهول الإعظام والإجلال كما يجري النيل الفائض بدموع
إيزيس في رياض أوزيريس . تلك الزهرات النضرة هي
إشارات حينا لسما مصر العزيزة .

* * *

والباقية الثانية أهديا إليك أيها الشاعر العذب .
زهراتها - أنظر إليها تعرفها - ليست إلا نثرات من
روحك الجميلة . نثرات من روحك وبها أعني حيتك
وأحلامك ، دموعك وتنهاتك ، يأسك وآمالك .
كم من ليلة غادرت العالم الحسي لأطير معك إلى تلك

العوالم البعيدة القريبة المملوءة أنواراً وطرباً ! كم من ليلة
قضيتها منحنية على كلومك الشعرية أراقبُ دماء أحزانك
السائلة أنغاماً وألحاناً ! كم من مرة ملتُ أستنشق رائحة
دموعك وأحلل ألوان أشجانك ؛ ولأشجانك ألوان بديعة
ساحرة كالوان الشروق والغروب ، ولدموعك أريج
عطر مسكر كأرواح الزنبق والفل والياسمين !
هذه باقتي . خذها . إنما هي بعض ما تركته أنغام
شاعر كبير في نفس فتاة شجيّة .

وكلمتي الأخيرة أوجّهها إليكم ، أيها المصريون الكرام .
نحن ضيوف عندكم ، نزلاء في بلادكم ، لكن كرمكم
وإخلاصكم ذكرنا بأن " للمواطن أوطاناً اذا تجاوزت
الأحبة . فعرفنا كنوز نفوسكم ، واقتبسنا بعض عاداتكم ،
وتعشقنا موسيقى لهجتكم وأحببنا مصر لأننا أحببناكم .
هذه يدي أضها إلى الأيدي السورية التي تمتد اليوم
لمصافحتكم . ومياه سوريا ، وغاباتها ، وقمها السماء تحييكم
الآن بصوتي ، الفتاة - بصوت الفتاة المترجفة الواقفة أمامكم -
مرددة : دوموا والكرم رضيع قلوبكم ، والعظمة ربيبة
نفوسكم !

دوموا مصريين ، يا أبناء النيل العظيم !

المرأة والتمدن

كلمة شكر أقدمها إلى سعادة رئيس هذا النادي سكاكيني باشاء.. وحضرات أعضائه الكرام . إني أشكر لهم حسن ظنهم بي . وألبي الدعوة التي شرفوني بها بغاية السرور . حسن أن يقف المرء في وسط قومه ، ولو مرة في العمر ، مناجياً من نفوسهم ذلك الجزء الأكثر حسناً بما يتراكم على قلبه من الأفكار الجميلة المضنية ، ساكباً أمامهم بعض ما يجول في نفسه من الأمنيات العزيزات والرغبات الحارات .

ناد شرقي يزينه حضور شرقيون . إن نفسي الشرقية لتهاز طرباً لهذا الموقف ، وسأتكلم بصراحة وثقة . كأني الطفلة الأولى من عائلة كبيرة ذات لطف وتسامح . طفلة تتكلم بلا خوف ولا وجل مستسلمة لرعاية من هم حولها ، مستبشرة بدلائل الانتباه البادية في أنظارهم وابتسامتهم التشجيع المرتسمة على شفاههم . ولا محل للعجب إذا تجاسرت على الكلام في ليلة تسمعكم صوت الدكتور نمر .

أقيمت في حفلة أقامها « النادي الشرقي » في القاهرة ليلة الثالث والعشرين من نيسان « أبريل » سنة ١٩١٤ أمام جمهور غفير من أعضاء النادي ، والسيدات زوجاتهم وبناتهم .

إنّ الساقية الصغيرة لا تفقد معناها قرب النهر الكبير ،
بل إنّ جمال تدفقه يكسب ضعفها قوة ، وتعطيها جبرته
مجداً وفخراً .

الموضوع

أيها السادة والسيدات ،

نحن في فصل الربيع والحياة تلبض بقوة في كل جزء
من أجزاء الكون . ونيسان رسول الجمال ونبي النور ،
يسلم أنفاسه الأخيرة تاركاً جماله وأنواره في ذمة أيار ؛
ملك الورود . إذاً لست بحاجة للبحث عن موضوع أحدثكم
به ، فان الفصل المار بنا يوحى إليّ موضوعاً جميلاً .
الأزهار ، تلك المخلوقات العجيبة التي لا تراها نفس حساسة
إلاّ وتشعر بأنها إزاء سر غامض قد التفت بألوان الحدائق
والرياض ، وستر معانيه بعطورها .. على أنّ الوقت ليل ،
ورداء الظلام يججب عن النواظر وضوح الأشياء . والأزهار
التي تفتح في النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة ، تنكش
للامسة الليل ، لأنّ رطوبة الليل تُذبلها . لكني سأبدها
بزهرة أوفر منها جمالاً ، وأتم شكلاً ، وأدعى الى التفكير ،
وأحرى باهتمام ذوي القلوب النيرة الرحيمة . تلك الزهرة
التي تضم في كيانها آيات الحسن الكبرى ، وأسرار الحنان
الذي لا يدرك ولا ينقضي . تلك الزهرة التي يعذبها ظمأ
الحرية ، وتتجاوزها العواصف ، وتتقاذفها صرعات الزمان
منذ أجيال طوال ، فلا ينقص غصنها ولا يلتوي . تلك

الزهرة النارية التي تناول الدهور آمال المستقبل ، وتنقل
من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم .
لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة ، هي المرأة !

تقهقر نصف الانسانية

أيها السادة والسيدات .

لقد طافت المدينة أنحاء العالم ، وتلألأت أنوارها في
القارات الثلاث تباعاً : في الشرق حيث جعلت أحاديث
الأقدمين الفردوس الأرضي ، اتقدت شرارتها الأولى
فكانت المدينة كالشمس بازغة من بلادنا . وبعد أن نقلت
خطوتها الأوليتين المجيدتين في آسيا وافريقيا ، تناولتها يد
أوروبا ورفعتها في جو الجهل المظلم ، وهزتها كقبس سحري
قائلة : « أنيري العالم ! » فاستنار العالم وغرنا ضياء العلم
الساطع . وكأني بالمدينة ذكرت أنها أكثرت من الحسنات
إلى العالم القديم ، فذهبت تسعى إلى ما وراء البحار
البعيدة ، في ذلك العالم الجديد الذي لا تقاليد تقف عثرة
في طريق نجاحه ، ولا هو موثق بسلاسل عادات قديمة
تجعل الحياة على عاتق الأحياء عبئاً ثقيلاً . في ذلك العالم
البكر ، الذي قال فيه أحد كبار المفكرين : « إن
كولبس اكتشفه بينا كان لوثر يحاول هدم العالم القديم . »
أجل . لقد طافت المدينة أنحاء العالم ، ولكن ما
حالتها بها ؟ لقد ظهرت معجزاتها في اكتشافات البشر

وعلومهم وفنونهم وأساليبهم وكيفية معيشتهم ، إلا ان الشقاء ما زال شقاء ، ما زلنا نشاهد حولنا الحرب والفقر والمرض والقتل والانحطاط النفسي ، والمعاهات الأخلاقية على تعدد أنواعها . وما برحت الشعوب تشكو حكوماتها ، والأوطان تشقى بابنائها ، والعائلات تتعذب بأفرادها ، والأفراد تتوجع بميوها وتشقى بفرائزها المتناسخة عن وراثت بعيدة وقريبة . كلا إن المدنية لم تأت بتمام واجبها بعد ، ولم تصلح من الأحوال إلا البعض اليسير أو المتوسط . وأنتم أيها السادة والسيدات ، تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة . ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس إلا "تقهقر نصف الإنسانية ، هو جهل المرأة .

قال هيجو : ليس الرجل وحده الإنسان ، ولا هو المرأة وحدها ، بل هما الإنسان ، والإنسان هما . كل جنس دون أخيه نصف فقط ، ولا يصير عدداً كاملاً إلا إذا أضيف إليه النصف الآخر . لا صحة للمرء إلا بسلامة دماغه وقلبه ، ولا سعادة للرجل إلا بسعادة المرأة .

تاريخ المرأة استشهاد طويل

كيف كان يراها المتقدمون ومنهم أفلاطون ؟
سعادة المرأة !

سل عنها الدهور المتدحرجة في هاوية الزمان ، لو كان

لدهور لسان لأنباتك بما يدمي الفؤاد . المرأة القد جعلتها الهمجية حيواناً بيتياً ، وحسبها الجهل متاعاً ممتلكاً للرجل يستعمله كيفما شاء ، ويهجره إذا أراد ، ويحطمه إذا خطر له في تحطيمه خاطر . كانت بعد ذلك عبدة شقية وأسيرة ذليلة ، ثم ارتقت مع مرور الأجيال إلى درجة طفلة قاصرة ، إلى لعبة يلهو بها السيد في ساعات الفراغ ، إلى تمثال بهرجة تترام على الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة . ومن منا يدري بما كانت تستره الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة من قروح القلب الدامية التي لم يضمدها بشر ؟

تاريخ المرأة استشهاد طويل أليم ، ومن أغرب الغرائب أنها لم تجد لها في القدم صديقاً ولا نصيراً . كانت عامة الشعب تكرمها وتحققوها وليس ذلك بكثير على قوم جاهلين ، تحجرت منهم القلوب وصمت الأفهام ، فهم لا يدركون شيئاً مما يتجاوز دائرتهم الصغيرة ، لكنني أرى الأمر عجيباً ، بل فظيماً ، من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة أفكار العالم . لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة إلا "جمال جسدها وليس في قصائدهم ما يدل على تلمس آثار النفس وراء ظواهر الجسد ، وجميعهم متفق على تسميتها : الشيطان الجميل أو ينبوع المسرات السامة . وشعراء اليونان : أسخيلوس وأوربيدس وغيرهما ، يسمونها - ببساطة كلية - : « بلية العالم » . أما الفلاسفة فأكتفي بأن أذكر

هنا كبيرهم أفلاطون ، أفلاطون الإلهي ، الذي يعتبره تاريخ الفكر أمة بأسرها ، أفلاطون ذا الأحلام الغامضة والمبديء السامية الذي لم يترك موضوع إصلاح سياسي أو أدبي إلا عاجله رغبة في إسعاد العالم - أفلاطون لم يفكر قط في تحسين حالة المرأة ولم يهتم في درس أخلاقها واستكشاف درجتها العقلية والاستعدادية .

ماذا أقول ! إن أفلاطون هذا قضى حياته آسفاً لأنه ابن المرأة وكان يصرح بازدرائه بأمه ، ويعتقد أن من كان جباناً من الرجال في هذا العالم فعند ولادته مرة أخرى تتقمص روحه في جسد حيوان أو في جسد امرأة... وما علم أفلاطون أن امرأة ستعلم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة في « مدرسة الاسكندرية » وأن تلك المرأة لا يمنحها شبابها الغض وجمالها الرائع أن تكون أعلم علماء عصرها . تلك هي الفتاة هيباثيا ابنة ثيونوس الرياضي الشهير ، التي قُتلت رجماً في شوارع الاسكندرية في اوائل القرن الرابع ، فذهبت شهيدة علمها وإخلاصها ورغبتها في إشهار التعاليم الأفلاطونية الجديدة .

أول من رفع شأن المرأة

صاحب الشريعة المسيحية وصاحب الشريعة الاسلامية .
أيها السادة والسيدات ،
أول من عطف على المرأة وأسمها كلمات الاشفاق

والغفران هو يسوع الناصري . وهو أول من سوى بينها وبين الرجل إذ جعل لها خطة واحدة تقضي إلى ثواب واحد ، وإلا فللضالين عقاب واحد . على أن النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت وما برحت طائفة من اللاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام .

ثم جاء نبي الإسلام فرفع شأنها أي رفعة في بلاد العرب ، إذ حرّم وأد الفتيات ، وسوّاهما بالرجل في جميع الحقوق والواجبات . إلا في الشهادة والميراث - فإن امرأتين تساويان رجلاً - وفي ما عدا ذلك فهي والرجل سواء في جميع الحقوق المدنية ، ويقول العارفون إن لها الحقوق السياسية أيضاً . وللمسلمات أن يكن فقيهاً وكانت أول فقيهة منهن عائشة ، زوجة صاحب الشريعة الإسلامية الذي قال لقومه : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وعليّ أن أذكر هنا اسمي بتاركا ودانتي ، وهما أول من تلمس نفس المرأة من طغمة الشعراء والمفكرين . لقد جعلنا لقصائدهما عرائس تتجلى فيهن ملكات الجمال الأدبي ، وهما اللذان ترنما للمرة الأولى بالمرأة ذات النفس السامية والذكاء إلوقاد ، ومقومة عثرات الجنس القوي . من منا لا يعرف لورا وبياتريشي ؟ إن هذين الاسمين لا يفترقان عن اسمي بتاركا ودانتي ، وسيكونان أبداً المثل الأعلى

الذي تود كل امرأة أن تكون صورة له. هذا المثل الجميل الذي مرّ في نجيحة دانتي فصوره في شعره الساحر قد اخترق ظلمات القرون الوسطى كه برق ساطع . ثم جاء كبير شعراء العالم الحديث شكسبير ، فجعل أبطال أكثر رواياته من النساء الجميلات ذوات النفوس الكبيرة ، تتلامس في قلوبهن بلطف يشبه تموّج النور في الهواء ، أقوى وأعذب شعائر المحبة بأسمى وأوجع عواطف التضحية ؛ وكذلك كانت النساء في روايات كورناتيل ، وكلّمك ذاكر بلا ريب بولين وكاميل وشيان ... ألا تذكرون ؟

لم يكن جميع مفكري تلك القرون من رأى شكسبير وكورناتيل ، بل كان معظمهم مبغضاً للمرأة ، ساخراً بها إن لم يكن طاعناً فيها . وقد لخص بوسويه أسقف مور أفكار معاصريه وأوردها في جملة واحدة إذ قال يجديته الخبروتية المشهورة :

« خلقت المرأة من ضلع زائد في جيب الرجل ، فلهذا السبب هي عقينة لا ذكاه في عقلها ولا إدراك في نفسها . رحمة الله عليك يا بوسويه ! إنك لم تكن نبياً ! أما كون المرأة مخلوقة من ضلع الرجل فهذا أمر لا رأي لي فيه ، غير أنني أفضل أن تكون مخلوقة من عصير قلبه وعواطفه بدلاً من أن تكون - كوتليتينا - مصورة . وأما كون الضلع زائدة فهذه مسألة فيها نظر ، وعلى كل حال فلست متولية لإثبات هذه المسئلة التشريحية ... أو اللاتشريحية .

لذلك كانت المدنية عرجاء

أيها السادة ، لننس هذه الأقوال العتيقة ولننظر إلى أحوال الحاضر . إنّ النهضة النسائية تمتد يوماً في أقاصي المسكونة . إنها لنهضة عجيبة تبشر بخير عظيم وتنبئ بأنّ مدينة أمس العرجاء التي لم تتكبيء إلاّ على جنس من الجنس ، هي غير مدينة الغد الممتعة بتحقيق الأماني . ليست مدينة الغد مدينة الرجل وحده ، بل هي مدينة الإنسانية ، لأنّ المرأة آخذة بالصعود إلى مركزها الحقيقي بقرب الرجل . إنّ موجة النور ، نور الارتقاء النسائي ، تزداد ارتفاعاً واتساعاً مع الأيام . في فرنسا والمجتراتا وأميركا وألمانيا وإيطاليا تجاهد المرأة جهاد الأبطال في سبيل ترقية جلسها وترقية النوع البشري معها . ولقد نالت جميع حقوقها في أسوج ونروج وفنلندا وزيلندا الجديدة ، وفي بعض الولايات المتحدة ، فهي الآن والرجل سواء : أديباً ومدنياً وسياسياً أيضاً . وفي كل من هذه البلاد كان تأثيرها نافعاً جميلاً ، وحيث تقلدت الوظائف العمومية قد قلّت الجرائم ، وخفضت وطأة السكر ، وظهر تحسن محسوس يكاد يكون ملموساً في مستوى أخلاق الأمة وفي حالتها الصحية جميعاً .

هذه هي المرأة الجديدة ومستودع آمال المستقبل .

ما تفعله اليوم المرأة

التي قالوا إنها لا تصلح إلا للخدمة

كم قالوا فيها أنها لا تصلح إلا للخدمة البيئية والزينة الجسدية وها هي مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة . وكم قالوا أنها حيوان جميل وشيطان لطيف وها هي ملك كريم يحاول إفهام الرجل أن في الحياة عنصراً سامياً هو كل الحياة . وكم قالوا أنها كاذبة خبيثة وان الصدق والإخلاص بعيدان عنها بعد الشمال عن الجنوب ، وها هي آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوحتها في أزمنة العبودية . وكم قالوا إنها مترددة حائرة ذليلة لا تقوى على توليد فكرة ولا تحتمل المسؤولية ، وها هي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال ، منحنية بجرقة على معاني الحياة العميقة . وكم قال فولتر إن فكرها مريع العطب وإنه يتحطم تحطيماً إذا حاول استفهام ناموس علمي . غريب أن يقول فولتر هذا القول ، هو الذي استعان بامرأة على فهم كتابات نيوتن ، وهي صديقتة مدام دي شاتليه ومعربة كتاب نيوتن في ناموس الجاذبية . ثم اذكروا مدموازل لابلاس ، وماري كوالسكي ، ومدام كوري ، وعشرات من النساء المشتغلات في العلوم الطبيعية والعلوم المجردة ، والمئات المشتغلات بالفنون والصنائع والحرف المختلفة . في فرنسا خمسة ملايين من النساء يشتغلن حاملات

في قلوبهن المسؤولية العائلية والهموم الكثيرة . يخترقن سبل الحياة المحفوفة بالكوارث والأوجاع ، داميات القلب ، ولكن شريفات النفس شريفات المقاصد . ومثل ذلك في إنجلترا وفي الولايات المتحدة حيث عدد العملات فقط يكاد يبلغ الأربع مئة ألف . ويقول الإحصائيون إن في مصر نحو مليون ونصف من السيدات المتعاطيات الأشغال العمومية .

قالوا ان العلم يذهب بملكاتها

وكم قالوا إن المعارف لم تخلق للمرأة وإن العلم يذهب بجيهاها وتواضعها ولطفها ، وإنه يجعلها متكبرة جافة محتقرة العائلة هازئة بالرجل ، وها نحن نراها إذا تعلمت زادت جمالاً وحناناً أكيداً واحتراماً للعائلة وإجلالاً للرجل . إنها الآن تفهم معاني الحياة وتريد بكل قواها ترقية نفسها وإعلاء مداركها وتربية شخصيتها واستخدام ملكاتها في بث الخير والسعادة حولها وعلى كل ما يحيط بها . المرأة الراقية وحدها تعرف أن لها فخراً رئيسياً واحداً وهو ان تكون أمّاً بكل معنى الكلمة وبجميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة . وهي وحدها تعرف أنها كانت إلى اليوم والدة الجسد فقط ، وتحاول أن تصبح أمّ الروح أيضاً ، أم العواطف وأم الأفكار وأم الميول ، والمهذبة الكبرى والسديقة العظمى .

قالوا لا عقل لها

وكم قالوا إنها لا عقل لها ، وإن حياتها سلسلة أهواء متتابعة ، وتقلبات صبيانية تافهة ، وما إننا نراها بعيدة النظر ثابتة المقاصد ، مغرقة منفعتها الشخصية في بحر المنفعة العامة . انظروا إلى روسيا حيث النساء تتألم تألم الرجال وأكثر ، روسيا حيث الثورة الفكرية تهيء حتماً الثورة السياسية ، كم من فتاة حسناء قد وضعت خطيبها ومستقبلها وهناءها حباً بمصلحة وطنها ، واشتركت في جمعيات تظن أن في تأييدها خيراً للبلاد .

أنصار المرأة ومن هم

المتهمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوي ، ولكن أنصارها أكثر وهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة . بل هم أسمى وأشرف رجال زماننا . إنهم يحترمون جهادها ، ويعترفون بحقوقها ، ويقرون بما تأتيه من الإصلاحات الباهرة ، ويمجبون بإقدامها وثباتها ويرون في نهضتها أيدياً جديدة عاملة لخير الانسانية وتخفيف الويلات عنها . أليس فيكتور هيجو هو القائل إن تحرير المرأة يحل أكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المدنية ، وإنه ينتظر منها وحدها إلغاء الحرب في العالم ؟

شرارة الحياة في مصر صوت المرأة من أعماق الدهور

وهو القائل أيضاً إن القرن العشرين هو عصر المرأة .
ولقد صدق في نبوته ! في كل مكان تفتح المرأة عينها
لنور الحياة حتى في أطراف الشرق الأقصى ، في الصين
واليابان ، وفي تركيا . وها إني أرى شرارة الحياة تشتعل
في مصر أيضاً ، حيث الرجال يساعدوننا بأقلامهم وبألسنتهم
وبمثلهم ، وجل ما يتمنون هو أن تستحق النساء عنايتهم
واهتمامهم بأمرهن . أجل في مصر تتكسر القيود الدهرية
التي طالما عذبت فكر المرأة ونحن اليوم عند عتبة مستقبل
باهر . في مصر تشتعل شرار الحياة والا فإذا يعني
وقوفي بينكم أيها السادة ، وماذا يعني سكوتكم الجميل
المملوء إصغاء تاماً وتشجيعاً قوياً وتفكيراً عميقاً ؟ أتكلم
الآن بمعرفة كأي صوت المرأة الصامت منذ أجيال ،
وتستمعون إليّ بإشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ
ابتداء الدهور . النفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها
للإصغاء ، والصوت الخافت الذي لم يتعود إلاّ همس الطاعة
ومتممة التمرد المبهم ، يرقع الآن آتياً من بعيد من عمق
أعماق الدهور السوداء ، من أقصى أقاصي الخليقة العجيبة ،
آتياً من القبور ، من البحار ، من عناصر الحياة جميعاً
صارخاً : أيها الرجل ! لقد أذلتني فكنت ذليلاً . حررني
لتكن حرّاً ، حررني لتحرر الإنسانية !

في طنطا

أيها السادة والسيدات ،

لم أكن أعرف من طنطا إلا اسمها ومحطتها يوم شرفتنى الجمعية بدعوتها ، فشعرت بشيء يشبه العاطفة التي تعاندي المرء عند إقباله على المجهول . ولكن ما لبثت أن عرفت عن هذه المدينة أشياء كبيرة في معناها : علمت أن أهل طنطا قوم تؤلف بين قلوبهم أخوة شرقية كريمة ، ويوحد كلمتهم حباً للخير والرغبة في نفع الغريب والقريب على السواء . عرفت أن النساء فيها مثال جميل للمرأة الشرقية الجديدة ، وأنهن يسابقن الرجال في إغاثة الملهوف والأخذ بيد البائس . عرفت أن هذا الاجتماع ملتقى عدد عديد من خيرة القوم يلتف حول مدير ممتاز جامع لصفات الجندي الباسل والحاكم الحازم .

أما قاموس الأخبار الذي جمعت منه معلوماً في هذه فهو ذلك الذي يعرف كل الناس وكل الناس تعرفه ، هو الحركة الأدبية الدائمة : الاستاذ سليم سر كيس .

ألقيت في الحفلة السنوية التي أقامتها في طنطا جمعية الاتحاد والاحسان السورية للسيدات مساء ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٤ .

جئتكم بالتحية فاقبلوها وحيّوا معي الهمة النسائية التي
جمعتنا هنا لتطلعنا على ملخص أعمالها الجليلة . حسن أن
تكون المرأة عالمة ، وأحسن منه أن تكون فاضلة . جميل
أن تكون المرأة مفكرة ، وأجل منه أن تكون شفيقة
رحيمة . فحيوا المرأة التي لا تكتفي بالأمومة الجسدية ،
بل تريد أن تكون فوق ذلك أمّا للشريد الحزين الذي
لا أمّ له . حيوا ينبوع الحنان والجود المتدفق على الأعراس
التي طالما أوجعها ظمأ الفاقة وقد أوجدتها الطبيعة في تربة
جافة ، وجردتها من عطاياها فجاءت المرأة تحنو عليها .
حيّوا تلك الأيدي النحيفة التي تحسن إلى الروح والجسد
معاً . أيدي قوية على ضعفها تعمل لخير الإنسانية يحد ونشاط
كأنها أيدي رجال . حيوا معنى الإحسان السامي الذي
يرفع النفس من مستوى الأناية الضيق ويجعلها مشرفة على
آفاق الإنسانية الواسعة حيث تنمو وتنبسط بالإشفاق
والحنان .

هللوا للمحسنين ، إنهم جبابرة العصور ورافعو الإنسانية
من هوة الذل والشقاء . لهم نصبت الإنسانية أجمل
التأثيل ، وعند أقدامهم سكبت حار الدموع ، ولقد
كافأتهم بأن جعلت أسماءهم مقرونة أبداً بما لديها من المعاني
الحالات : الإحسان والشكر ، والفخر العظيم .

أيها السادة والسيدات ،
أمّا الآن وقد تعارفنا فلنا أن نتحدث قليلاً فتعالوا

معي إلى وطن الأوطان ومهد العالم ، إلى الفردوس الأرضي ،
ولا تخافوا مشقة السفر فهو سفر خيالي . أتذكرون
الشجرة الشهيرة ؟ هناك تجتمع الآن أفكارنا حول تلك
الشجرة المسماة شجرة معرفة الخير والشر .

موضوع مشترك بين الجميع لا يحمله كبير ولا صغير ،
ولكني أعترف بكونه خطراً لأنه يكشف عن حزازات
قديمة في الصدور ، ويثبته الرجال والنساء إلى الدفاع كل عن
آباء جنسه ، فالرجل يقول : هي ! والمرأة تقول : هو !
لا تغضي يا سيدتي حواء ، وهون عليك ، يا سيدي
آدم ! إن قفاحتكما ضرورة للعالم وما كان أشقى ذراريكما
لولاها . إنها رمز المعرفة ، وهل في وسعنا أن نتصور
الإنسان جاهلاً والكون مجهولاً إلى الأبد ؟ لولا المعرفة ما
كان علم ولا كان أمل ، ولا كانت فكرة الاستقلال ورغبة
الارتقاء ؛ وإن لم تكن هذه فماذا يبقى الله من الحياة
المعنوية ؟

في اعتقاد الأقدمين أن المعرفة تصير الإنسان كإله
يعرف الخير والشر . وكانوا يخافون كل عالم ويرمونه
بالسحر لأنه سرق شيئاً من خصائص الآلهة : فإله من
اعتقاد عظيم تضمن أمل الارتقاء ! كانت المعارف صعبة
المنال على طلابها لأنها لم تكن عمومية كما هي في عصرنا ،
بل محصورة في أشخاص لهم أتباع وتلاميذ قد وقفوا
حياتهم على حب العلم والحكمة . فإذا ما رغب امرؤ في

العلم هجر بلاده وثروته وذهب الى أحد الفلاسفة واندمج
في عداد تلاميذه جاعلاً غرضه الوحيد استماع أقوال معلمه
والسير بموجبها . وبعد هذه التضحيات أتظنون أنه كان
يطمئن على أحواله ؟ اذكروا ما فعلته كسانثيا زوجة
سقراط ، تسمعوا الجواب على هذا السؤال !

مدرسة سقراط

كانت مدرسة سقراط من أشهر مدارس الماضي ؛ وكانت
كسانثيا زوجته ثائرة ، ضيقة النفس ، سطحية المدارك ،
ترى العلم جنوناً وتحسب زوجها معتوهاً . ففي أحد
الأيام إذ كان سقراط يخطب في تلاميذه أخذت زوجته
تضحك منه ، ولما لم يكثر ذلك انقلب ضحكها غضباً
وطردت الأستاذ والتلاميذ جميعاً ساكبة على رؤوسهم الماء
البارد . فتذمر التلاميذ وسألوا الأستاذ أن يكفيهم شرَّ
زوجته ، فأجاب سقراط المسكين : « دعوها تفعل ،
إن شرستها علمتني الصبر والحكمة . »

طوبى لك يا سقراط ! ولكن لو كان جميع النساء كمن
ذكرنا لما كان جميع الرجال فلاسفة بل مجانين .



أجل كان الأقدمون يخافون العلم والعلماء واثقين بأن
السعادة في الجهل المطبق والخلو النفسي . وعلى رغم ذلك

فقد كان في وسط تلك الجماهير النائمة الهازئة المعاكسة
أفراد بلغوا أعلى درجات السموّ الفكري . ذلك لأنّ
الإنسان لم يخلق إلا ليعلم . علم أولئك الأفراد فعملوا
وأورثونا ثمين الآثار في جميع دوائر المعرفة الإنسانية ،
ووضعوا الأسس الأولى لعلومنا الحديثة . نعم إنّ تلك
الأسس هدمت مراراً لبطلانها واكتشاف ما هو خير منها ،
ولكنه لا يسعنا إلاّ إجلال المنقوض منها والباقي لأنه
نتيجة علم كثير وعمل متواصل .
أيها السادة والسيدات ،

لنا على الماضي امتيازات كثيرة . نعم إنّنا لا نستطيع
أكل المعارف في نصف قفاحة كما فعل آباؤنا الأولون .
ولكننا نمتاز على الأقدمين بأمور جوهرية كثيرة . إنّنا
نعرف الآن قيمة العلم ، وإنّ المعرفة صلة الإنسان بالأشياء
والسلك الكهربائي الجامع بين ذكاء الفرد وبين المعنى الحيوي
المبعثر في أجزاء الوجود ؛ وإنّ على هذا السلك العجيب
تفيض معاني الإنسانية العظمى ألا وهي الإعجاب والحبّ
والعمل . نعم الآن أنّ الجاهل سجين نفسه ، أسير أنانيته ،
مستقل بإدراكه المحدود ، مكتف بدعواه ، لا يستقبل
جديداً إلا بالطرده ، ولا يذكر حديثاً إلاّ بالتهكم وسوء
الظن . ولئن تأملنا من احتكاكنا المحتم به فإننا نشفق عليه
لضيق الدائرة الحيوية التي رضي بها ، كأنّ كل ما لدينا
من الجمال والصلاح والثروة المعنوية لم يخلق له ، بل هو

كائن لسواه ا

إنما امتياز عصرنا الأعظم هو فكرة التقدم ، والاندفاع في سبيل الارتقاء . وتوفّر المعارف وسهولة نيلها لمن طمح إليها ، بعد أن كانت محصورة في أفراد معدودين . لست من القائلين إن عصرنا هو العصر الذهبي الذي يحقق الآمال ، غير أنه عصر عظيم وابن عصور عظيمة بتفكيرها وجهادها ؛ عصر مملوء خيراً لطالب الخير ، وفيه من أسباب الراحة وسهولة المعيشة ما يجعل اللذات المادية والمسرات المعنوية ، واقتباس العلم متوفراً لدى الفقير توفره لدى الغني . لقد اتسعت العلوم وتعددت فروعها ، فاتسعت بذلك سطوة الإنسان على الطبيعة ، وتعددت سبل العمل أمامه .

الفلسفة تنبش أعمال العقول ، والشعر يلبس أسرار النفوس ، والموسيقى توقع همس الوجدان ، والتصوير ينسج العواطف نسجاً ويرسم أدق خطوطها ، فاليوم تحقيق أمنية الحكيم القائل : أيها الإنسان اعرف نفسك ! لقد ارتقت الأخلاق ، ولطفت الشعائر ، ودقت الملاحظة ، وأفسحت فكرة الحرية المجال ، فتيسر لكل أن يهذب شخصيته كما يريد بعد أن كان مكرهاً على سببها في قالب جيرانه ومعارفه . كان وأد النساء حلالاً ، وقتل الأبناء جائزاً ، وفن الاستعطاء مقدساً . أمّا الآن فسلطة الأب والزوج محدودة ، والنفوس عزيزة عاملة تنال ما تنال بالكدّ والسهر .

بالأمس كان الناس اثنين : سيّداً مستبداً ، وعبداً ذليلاً
يباعُ ويشرى كالأنعام على غير علم منه . أمّا اليوم فمبدأ
العدل يُضعف قيود العبودية ، وصوت الحرية ينادي بالإخاء
والمساواة . لقد اتسعت دوائر التجارة وارتقت الصنائع ،
وتبدلت منافع الاقتصاد ، فحلّ السلام والأمان ،
- مبدئياً - إذ لا غزو يفاخر به ولا اغتصاب يسامح
عليه . والسياسة تحاول تسكين الخواطر والإقلال من
الحروب ما استطاعت . فما أبعد أيام نيرون وماركس
اوريليس والإسكندر والحروب الصليبية . حتى أيامك
يانابوليون ، حتى أيامك القريبة بعيدة عن هذا العصر
الذي يمنح الإنسان إيلام الحيوان ويعلمه الإشفاق عليه .
يدعي الماديون أن العلوم وحدها سبب التقدم وعنوان
الحضارة ، فحق كانت الكيمياء والهندسة أساس المدنية ،
ولماذا لا نعتبر الصين أعظم بلاد العالم على الإطلاق لأنها
مكتشفة البوصلة ومخترعة آلة الطباعة والبارود ؟

ليس في استطاعة العلم إلا تحسين أحوالنا المادية ، انه
يعلم الإنسان استخدام الطبيعة ، وينمي ذكاه نمواً شديداً ،
ولكن لا سطوة له على الأخلاق . وأنتم تعلمون أن العلم
نصف الارتقاء ، والأخلاق النصف الآخر ، وأن شرف

المرء قائم بحسن أخلاقه وسمو مداركه أكثر منه بتعدد
علومه وكثرة أطماعه .

أيها السادة والسيدات ،

معنى المدنية عظيم مطلق . آت من أقاصي الأجيال
متنقلا بين أشور وبابل وفينيقيا والصين والهند ومصر وأثينا
وروما . إنه مجموعة العناصر العلمية والأخلاقية والحسية
والعملية . كذا يجب أن يكون الإنسان فيجمع في شخصه
معاني الإنسانية بأسرها . ليست الإنسانية عالمة أو طيبة
أو محامية أو تاجرة فقط . بل هي فاضلة معذبة ، مجاهدة
فرحة ، حزينة فيلسوفة ، أدبية شاعرة ، باحثة فنية .
هي قيثاره ذات ألوف الأوتار توقع عليها أصابع الحياة
الألحان الرائعة من تشبيب وتأوه وتهليل ونوح وهتاف .

لذلك نرى دواما في النوابع ذوي الشخصيات الغنية
مزيجا من عناصر الإنسانية جميعا . نرى الفيلسوف شاعرا
أحيانا ، وقد نجد عند الفني والشاعر من الحكمة وإصابة
الرأي ، ما لا نجده عند الحكماء أنفسهم ؛ ذلك لأن
الشعر والعلم والفلسفة والأدب والعمل ليست أمورا منفردة
في ذاتها ، بل هي تتلامس وتتجاذب لأنها أساليب مختلفة
تعبر بها النفس عن أحوالها المتتابعة . عناصر عظيمة كلها
كامن في عقولنا ، مترجرج بين ثنايا مشاعرنا ، متدفق في
أحلامنا وآمالنا ، مكون ثروتنا الحيوية التي تفيض ساكبة
حولنا نوراً وسناء .

قال لايبنتز : إنّ النفس مرآة يجب أن تنعكس على
مياها الصافية صور الإنسانية الراقية ومعانيها لتكون
صورة مصغرة لها في الجمال والغاية . لقد عرفنا جمال
الإنسانية فما هي غايتها ؟ هي أن ترمي إلى مثل أعلى
يلمع هنالك في أقاصي الأيام والأمانى ، مثل أعلى ترى كل
عسير في سبيله هيناً ، وينهار في طريقها إليه كل حاجز .
غاية الإنسانية المثل الأعلى الذي يعطي الحياة معنى لذيذاً ،
ويكسبها رونقاً جديداً ، ويضرم في النفس ناراً تحرق
الفاقد من ميولها ، ويؤهلها لأن تكون هيكل الأفكار
السامية والمقاصد الشريفة .

إذن فالحياة الإنسانية خطوات ثلاث : خطوة من
الجهل إلى المعرفة . خطوة من المعرفة إلى الارتقاء .
وخطوة إلى ذاك اللامع هنالك في أقاصي الأيام والآمال ،
إلى المثل الأعلى الذي نجمله ويحيينا جميعاً .
والآن يأبى صوتي السكوت قبل أن يرتفع بتحية
مشتركة لشطري الوطن الغالي : مصر وسوريا .

مصر . سوريا .

وطن واحد ما زالت العلاقات المتبادلة تزيده كل يوم
توحيداً . السوري في مصر بين أهله وأصحابه ، والمصري
في سوريا بين ذويه وأحبابه . أنات مياه النيل صدى آهات
النسيم في غابات سوريا ، والطبيعة التي تزجر هناك بين

المرتفعات والمنحدرات ترتاح هنا منبسطة على صفحات المروج
الفيحاء .

مصر وسوريا ، ممتان مختلفتان من لغة جميلة .
مصر وسوريا ، كلاهما محسن وكلاهما محسوب ، لكن
تبادل الإحسان والمحسوبة يؤيد صداقتها ، ويزيد في
اتفاقها ، ويجعل قلبها خافتين على وفق نغمة واحدة .
مصر وسوريا ، فوق صروحها يخفق علم واحد يفاخر
الآفاق .

مصر وسوريا ، صفحتان مجيدتان من تاريخ مجيد . بل
شهران جميلان عزيزان من وطن جميل عزيز .
هذه تحيتي يا مصر : أنثرها في فضائك بلء صوتي .
وقلبي يردد : لتحي مصر ولتحي سوريا !

العجائب الثلاث

كان بسكال يقول : إن كلمة « أنا » غير مستحسنة ؛
ولكن إذا سمحتم لي أن أبدأ بالكلام عن شخصي ، قلت :
إن في نفسي ابتهاجاً . :

قد تتساءلون لماذا ، فانظروا إلى اجتماعنا هذا تروا فيه
الفرد الإنساني مكتملاً وثاموس الانصاف نافذاً .

لم يمرّ وقتٌ طويل على يوم كان الرجل الشرقي منكرًا
على المرأة ما كان يسميه « شرّ الدرس » ؛ يوم كانت المرأة
عبدة تخفي جهلها وذلتها تحت الأثواب الحريرية ، وتنسى
قيودها الدهرية لاهية بالأساور والجواهر . ثم حرّرها
الرجل قليلاً قليلاً ، وصار يدعوها إلى الاجتماعات العالمية ،
والسهرات الراقصة ، حاسبها زينة من الزينات المكملات
لتلك الحفلات اللامعات . ولكن اليوم انظروا انظروا
كيف علّت مكانة المرأة لديكم اصرتم تدعونها إلى حفلاتكم
الأدبية وتعطونها فيها مكاناً رحيباً . بل صرتم جاعلين
للفتاة الشرقية صوتاً — صوتاً صغيراً ، ولكنه صوت على

أقيمت في الحفلة التي أقيمت في فندق كورتلنتال مساء الجمعة ٢٨
نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦ احتفاءً بمرور ٢٥ سنة على إنشاء
مطبعة المعارف .

كل حال - بين أصوات الشعراء والخطباء ، منشطها إلى ذلك بقوة ، ومرغيبها على تناسي ما هي عليه من الضعف والتصور .

هذا للمرأة السافرة . أما أختنا المحجوبة فهي كذلك مستشعرة بنسمة الحياة الجديدة . من خلال نقابها الشعري اللطيف ، تفتح عينيها كبيرتين على آفاق النور ، وفي نفسها تتولد ميول مندفعة نحو وجهة الارتقاء ، ورغبات "تأثقات إلى مظاهر الكمال .

الرجل موجد الحركة النسائية عندنا ، والرجل منشطها ، والرجل مؤيدها . كثيرون من الأفراد يدعون إليها ، والرؤساء يعطفون عليها .

ولقد جاءتنا صحف الأسبوع بتعريب حديث للسلطان في تعليم الفتاة ، مع أحد مكاتبي صحف الفرنجة . إن هذا الحديث يزيد في قوة تأثيره العمل المؤيد ، لأنكم تعلمون أن أول فتاة تشغل بالأدب في السلطنة المصرية هي البرنسس قدرية هانم ابنة حسين الأول ، فتاة لا يصرفها الجاه العالمي والثروة المادية عن ثروة الفكر وجاه التفكير .

إننا نحسب الزينة واللهو والجواهر ، والسهرات الراقصات ، ولكننا نحسب الحب الذي تستحقه فقط ، وفي نفوسنا ميول أشرف منه وأعظم . عرفتم فينا ذلك ، وذكرتم أن الاستعباد قد ينقلب ثورة ، ففوضى ، وأن ما من غضب أشد خطراً من غضب الضعيف إذا استشعر

يوماً بقوته الكامنة . ذكرتم أن الطاعة الاجبارية ، طاعة الآلة البكاء ، لا قيمة لها وأن الطاعة الاختيارية تم عن ثقة وصفاء نية وتنتج خيراً . ذكرتم أن الخوف لا يقطن إلا في نفوس متصاغرة قد استنامت إلى الامتحان ، ولا يولد إلا مودةً مكذوبةً ورياءً ، وأن الشعور بالحرية وحده يكون عاطفي الاعتبار والاحترام ، وهما اس متين لكل ودادٍ شريفٍ مستديم .

ذكرتم أن لا قيود للنفس العالية إلا قيود الأخلاق الطيبة ، ولا جدران إلا جدران الحرية ، تلك الحدود التي لا تهدم لأن المرء يضعها لنفسه اختياراً ، اختياراً مشتركاً بين اللائق والواجب ... ذكرتم كل ذلك ، وكان قد نسيه رجل العصور الماضية ، فقمتم تنادون بتعليم الفتاة وتحرير المرأة .

أيها السادة ! لقد كنتم محسنين ، وكنتم خصوصاً منصفين .

هذه حقوق للمرأة ، حقوق ابتدائية ، وإن كانت جوهريّة ؛ ولكن ، يرضي المرأة أن تتناول هذه الحقوق كنعمة من يد الرجل لأنّ التمتع بفضل القوي الكريم عزٌ ودلال .

أيها السادة والسيدات ،
لئن كان الانسان أعجوبة الخليقة ، كما يقولون ، وكان فكر الإنسان أعجب ما في الإنسان ، فإنّ هذا الفكر

قد أبدع عجائب ثلاثاً جعلت للحياة معنى ورونقاً
جديدين ، وتلك العجائب الإنسانية هي : الكلمة والحرف
والمطبعة .

من يستطيع أن يتصور الحياة خالية من الكلام ؟
نعم ، السكوت جميل ، وله أسرار هي حيناً مرعبة
كظلمات اللجج وأنا لأمعة كقتل الكواكب في الدجى .
ولكنه كلامٌ في ذاته ، كلام تهمس به النفس بلا صوت
ولا حركة ؛ وما السكوت القهري إلا بكمٌ أو نوع من
البيكم .

يجهل التاريخ أي الشعوب تكلم أولاً وكيف تكلم .
على أن سادتنا الفلاسفة جعلوا هذه المسألة موضوع مناقشات
شتى بدأت في القرن الخامس قبل المسيح مع «ديموقريطس»
الذي كان يضحك دواماً من الجنون الإنساني ،
و«هيراقليتس» الذي كان يبكي حزناً على هذا الجنون ؛
ولم تلقته مع رينان الذي كان يكتبني بالابتسام المبهم
قائلاً : « لكل مسألة وجهان » . وفي خلال القرون
الطويلة التي مرت بين ديموقريطس ورينان ، قال الفلاسفة
أقوالاً جمة هي كأقوال هذه الطائفة - طائفة أنصاف
الآلهة - عادة ، كثير منها جميل ومفهوم ، والكثير
الآخر جميل و... كأنه مفهوم ؛ خلاصتها تقسم إلى قسمين :
ففريق يقول إن الكلمة نتيجة ذكاء الإنسان إذ شعر
باحتياج إلى التعبير عما يحول في نفسه ، فجرّب الحركات

أولاً ، وآهات الألم ، وعلامات الارتياح ، ولما أن شعر
بنقص هذا التعبير عمد إلى إبداع الكلمة واستعمل الصوت
في إبرازها . والفريق الآخر يقول بل الكلمة استعداد
غريزي في الإنسان ، هي عمل الطبيعة بالذات ، وما تعبّر
الكلمات إلا عن جوهر المعاني والأشياء . وقد زادت
المدرسة اللاهوتية على هذا في القرن الثامن عشر ان الكلمة
أعظم من أن تحسب استعداداً غريزياً لأنها وحي
إلهي .

وسواء كانت الكلمة ابنة الطبيعة أم نتيجة الذكاء ،
فهي على كلِّ مرآة الفكر وملخصته ومهذبته . عندما
تأخذ خطوط التصور بالارتسام على صفحة الذهن فتنتالي
الصور ، وتتوارد المعاني متزاحمة بلا ترتيب ، تكون حالة
الفكر آنئذٍ حالة غليان أو طوفان . ولكن إذا أردنا
اطلاع الغير على ما هو جارٍ في خاطرنا انتخبنا من الصور
ما كان أوضح بروزاً ومن المعاني ما كان أقرب مجانسة إلى
شعورنا ، فجعلناها كلاماً ، جعلناها وجوداً يلمس بحاسة
السمع ، تنطلق ذريقاته إلى فكر محادثنا ، قاهرة تلك
الهوة المحفورة بين البشر ، هوة السكوت والتباعد التي
تجعل الإنسان غريباً عن الإنسان ، فتؤلّف صلة قرابة بين
الروحين ، صفة التفاهم ، ويصبح الغريبان متعارفين .
تكلم الإنسان فأراد تدوين تذكاراته ، فاستخدم ما عنده
من قوى الملاحظة والتقليد في حالتها الأولية الخشنة ،

وأنشأ يرسم كل ما يقع تحت حسه ، ومن هنا تولدت
الهيروغليفيات القديمة الخمس .

من ، ياترى ، كان مستخلصاً من تلك الحروف الصورية
الأيجيدية الاولى التي تناقلتها أكثر اللغات المعروفة لدينا ؟
هذا موضوع مناقشة ودية بين المصريين والسوريين . على
أنّ الشائع أنّ الفينيقيين كانوا فاعلين . فحملها كبير تجارهم
« قدموس » إلى بلاد الإغريق في القرن السادس عشر قبل
المسيح ، ثم نسخها الرومان عن الإغريق ، وتناولتها
اللغات المتفرعات من لغتهم كالإيطالية ، والأسبانية ،
والبورقوغية ، والفرنساوية ، والإنجليزية ، والألمانية كذلك .
لأنّ الألمان يكتبون لغتهم على نوعين ، الكتابة الألمانية
القوطية الأصل ، والكتابة التي يسمونها لاتينية
(Die lateinische Schrift)

ومن أيجيدية « قدموس » جاءت أيجديات اللغات السامية
من عبرية وكلدانية وسريانية ، وأيجيدية تلك اللغة العزيزة
التي لم تفقها الإغريقية واللاتينية جمالاً وانتشاراً . اللغة التي
سُميت فبراتها تحت الأعلام الخافقات في أفريقيا حتى خط
الاستواء ، وفي آسيا الجنوبية حتى جاره ، وفي روسيا
إلى ما وراء غاسا !

لغة عنقرة والمنيبي ولغة الموشحات الأندلسية ! اللغة
التي همسنا بكلماتها الأولى في المهد أطفالاً ، وسوف تكون

منها كلمة وداعنا الأخير . في صدرها تذكاراتنا وفي
صدرها آمالنا ، اللغة العربية ا

تكلم الإنسان وكتب ، فأراد تخليد معلوماته وكانت
المطبعة آلة التخليد . وكما أن الشرق كان موجد الأيجدية
كذلك كان الشرق سابقاً إلى استعمال الحروف المطبعية .
استعمل الصينيون الاكسلوغرافيا (أي الطباعة على حروف
الخشب) قبيل القرن السادس ، وانتقل هذا الفن إلى
أوروبا في القرن الثاني عشر ، وظلوا يستعملونه هناك على
علانه تقريباً إلى القرن الخامس عشر ذلك القرن الذي
رأى الحروف المعدنية المتحركة وآلة الطباعة الأولى . ولكي
ينصف التاريخ بين الرجلين اللذين أحسنا إلى العالم فقد
قسم الفخر بينهما ، وقال إن « كوستر » الهولندي كان
موجد الحروف المطبعية المتحركة وإن « جوتنبرج » كان
مخترع آلة الطباعة ومنيل الحرف دقته الفنية الابتدائية .
هذه هي العجائب الثلاث التي تعرفون أيها السادة
والسيدات . ولا سبيل إلى تخليد العجيبتين الأوليين إلا
بواسطة العجيبية الثالثة . كذلك تقهر الآلة المعنى ، وتلتقم
المادة من الروح ا إن الفنون جميعاً من رسمٍ ونقشٍ
وحرفٍ وهندسة في حاجة إلى المطبعة ، لأنها تخلد بدائعها
وتعمل على ترويحها . تحتاج إليها الموسيقى ، ولا أعني
الموسيقى العربية لأنها كلها ألحان (mélodies) متراوحة
بين السيكاه والنهاوند والحجازكار ... الخ . ألحان كالنفس

الشرقية ، عميقة حزينة ، ولكنها بسيطة تتناولها الأذن الموسيقية بسهولة كلية ، وبعد تمرين قليل أو كثير ، توقعها بإتقان على العود أو على أي آلة شرقية أخرى . ولكنني أعني الموسيقى الغربية ، وأهم قسم فيها ما يسمونه (Harmonie) ، وثروة هذه الموسيقى وقيمتها في السوناتا ، والكانتاتا ، والأوبرا ، والسمفونيا وأمثالها مما لا يمكن نسخه بسرعة ووفرة ، وجعل أقتائه ميسوراً للجميع إلا بواسطة المطبعة .

لكن المطبعة ضرورية خصوصاً لتخليد الكتاب . الكتاب السنيّ المواهب ، مفجّر ينابيع النسيء الكتاب ا ذلك الصديق الأمين ، تلك الثروة التي لا تقنى ، تلك القسوة الصامتة ، المهيبة ، المهذبة ، التي لا تعرف جدالاً ، ما أعذب عبوس الكتاب في نفس محبّ الكتاب ا وما أخلجه جوهرأ وأكرمه أستاذأ ، الكتاب الذي يرفعنا فوق صغائر الحياة ، ويعلمنا كيف نُنمي فينا أشرف القوى الإنسانية ، الإخلاص والذكاء والإرادة ؛ ويقودنا قليلا قليلا إلى أعلى ذرى الإدراك والعرفان ، إلى أولبس العظيمة السماء حيث أيوب ، وأسخيلوس ، وشيشرون ، ودانتي ، وسرفانتس ، والمعري ، وشكسبير ، وكنت ، وهيجو ، يسكبون في فكرنا أفكارهم ، وتصير نفسنا كبيرة بلمس أرواحهم فتتسع وتتسع ، ثم تتسع حتى تحضن الفضاء ا

اليوم عيد مطبعة المعارف الفضيّ . وسوف تمرّ بها
أعياد شتى من الذهب ، والزبرجد ، والياقوت ، والماس ،
إن شاء الله ! تُظهِرُ في خلالها لمحبيّ الحياة العقلية من
تلك الكتب النفيسة التي لديها سرّ انتخاها وسرّ إتقانها .
تلك الكتب التي على الحرب ، وعلى الوجع وعلى الفاقة ،
وعلى الظلم المحتم في الحياة ، وعلى الدماء والعبرات ، وعلى
الشقاء ، وعلى اليأس ، وعلى كل بقعة سوداء تعكر سماء
الإنسانية ، تضع شعاع نور باهرٍ منبعث من كوكب
الفكر الخالد !

سوريا الجائعة

أيها السادة والسيدات ،

إذا التقى غربيان في أرض بعيدة - ولو كانت تلك الأرض وطناً ثانياً كمصر العزيزة - فما هو يا ترى الموضوع الذي تتناوله أحاديثها بداهة؟ إن ذلك الموضوع ينحصر في لفظة واحدة ، وهي التي تحوم الآن على لسان كل منا : الوطن ، الوطن القديم .

أذاكرون أنتم حركات السفن في مرافئ سوريا ، وجمال الثغور المشورة على شفة البحر كالشامات البيضاء؟ إذاكرون أنتم أرواح الفلّ والنعناع والورد والصعتر والليمون والياسمين ، آتية تودع النازحين ، حاملةً طي أنفاسها صدى تغريد الشحارير والبلابل ؟ إذاكرون أنتم لبنات القائم على الشط كهيكل منصوب بين الأرض والسماء وكان أنواره في الظلام شموع أوقدتها يدُ الآمال على مذبح الحياة؟

هئئت هذه الخطبة إجابة لطلب ميشيل لطف الله رئيس نادي الاتحاد السوري لتلقى في حفلة كان النادي ينوي إقامتها في شهر أيار أو حزيران سنة ١٩١٦ لإغاثة سوريا الجائعة . ثم طرأ ما حال دون الإلقاء .

كلنا نذكر هاتيك الربوع بخشوع وتحسان لأنّ لكلّ منا مكاناً هناك محبوباً بما ترك فيه من أجزاء نفسه ، وما أبقاه له من تذكّار . تذكّار أيام المدرسة والتلمذة ، أو تذكّار شهور اللهو والاصطياف ؛ ساعات تأمل لدى جلال البحر وعظمة الجبال ؛ ساعات الخطف أمام قلب الألوان وتماقب النور والظلام تحت سرادق الأفق ؛ أوقات أنس وطرب قرب الينابيع والأنهار ، وفتحات عود ، وشدو أصوات في قلب الغابات تحت الغصون النديّة . هذا بعض ذلك التذكّار الذي يمتزج بذرات القلب ، وينيلنا رغداً وتعزية إلى آخر العمر .

لكلّ سوريّ منّا معارف هناك ، وأصدقاء ، وذو قربى . أما الذي ليس له من عزيز بين الأحياء ، والذي ليس سوريّاً بمولده ونسبه فهو سوريّ برابطة أمّتن من هذه جميعاً لأن روابط الموت أقوى من روابط الحياة : هو سوري بقبور موثاه ؟

الآباء والجدود ، تلك هي روابطنا التي لا تنفك الآباء والجدود ، تلك الجفون التي أسبلت على نورها وما فتئت ترى الكائنات بعيوننا تلك الأشباح التي كانت أجساماً ، ثم قضت ومضت لتلبث حيّة بنا وفينا أولئك الراحلون الذين ضمت أرضنا رفاتهم إلى صدرها العطوف ، وأنبتت عند جوانب مضاجعهم أعشاباً لدنة ترتعش في ظلّ السنديانة الكبيرة ، والصفصاف النائح في مدافن

* * *

ولكن كيف أذكر أعشاباً نبتت على قبور الموتى ،
 وأنسى أن مساكن الأحياء قد خلت من أبسط الأقوات
 وأرخصها ثمناً ؟ كيف أنسى أن أرض سوريا قد أمسكت
 خيراتها ، ففقدت الحدائق أشجارها ، وتجردت الغصون
 الباقيات في الغابة من أوراقها ، وشغلت مكان جماعات
 الطير الصادح في جوتها كتائب الجراد المبيد ؟ كيف أنسى
 أن البحر قد 'سد' في وجه سوريا ، وأن ضرورة الحال
 قطعت بينها وبين أبنائها الغائبين ؟ بل كيف أنسى أن
 الثري هناك أمسى فقيراً ، والفقير معدماً ، والمعدّم جائعاً ،
 والجائع معانياً نزعاً طويلاً أليماً يتركه جثة في قبضة
 الموت الأغر ؟

كلا ! لا أنسى ان الشيخ الذي أفالته المصائب والتجارب
 حقوقاً على احترام الدهر له ، قد مشى الدهر على شيخوخته
 وحقوقه ، وأماته مية هي من أوجع الميتات وأقلها
 كرامة : الميتة الغبراء .

كلا ! لا أنسى أن فضائل الصبر والتضحية التي امتازت
 بها بعض الأمهات لا تقوم مقام الغذاء . فتقضي الأم يائسة
 ويستسلم الطفل للبكاء وهو لا يدري أبكاؤه تخوفاً لمنية

أقبلت عليه ، أم رثاء للقلب الوحيد الذي أحبه وقد
حرمته منه ميتة هي من أوجع الميتات ومن أقلها كرامة:
الميتة الغبراء .

كلاّ الا يمكنني أن أنسى أنّ شباننا الممثلين حياة
وذكاة ونشاطاً ، شباننا أمل الغدِ وضمانة المستقبل ،
يموتون هم أيضاً بلا مقاتلة ولا مناضلة ولا جهاد ، يموتون
لأن الحياة تملص . منهم قليلا قليلا حتى تتركهم جثثا
هامدات بميتة هي من أوجع الميتات وأقلها كرامة : الميتة
الغبراء .

آه اترى ماذا كنتم تقولون ، أيها الموتى ، لو كنتم
قائلين العلمك تقولون « تجود الطبيعة على الطير بما يغذيه ،
وعلى الشجرة بما يقوي عناصرها ، وعلى الأفعى بتراب
تسفه » ، ولكنها ضنّت علينا فمتنا جائعين . ولو اكتفت
بنا ضحية لسعدنا ، ولكننا سابقون لللاحقين . إخواننا
يتوافدون علينا في عالم الظلام جماعة بعد أخرى ولا نحن
ندري ولا هم يدرون ما هذا الذي نذهب فداء له . أليس
من مغيب ، أليس من معين ؟

بسلام ، أيها الموتى ، ناموا بسلام وكونوا للأحياء
قدسى . لقد سمع المحسنون أنينكم والمحسنون كثير . إنّ
السوريين النازحين يحبون أمهم الصغيرة سوريا القائمة وراء
الأزرق البعيد ويعرفون واجبهم في مثل هذا الموقف .

وهم لما يوحيه إليهم الحبُّ ويفرضه عليهم الواجب لفاعلون.

* * *

أيها السادة والسيدات ،

لأن كانت الأناية الحيط الذي ففسج به أعمالنا اليومية ،
فهناك أحوال خصوصية تمر بنا وترغنا على التحليق فوق
الحياة العادية ، فوق دائرة الأناية الضيقة وما يشغلها من
اهتمام ركيك واعتناءٍ سخيف . إذْ ذاك نرتفع فوق نفوسنا
ونُشرف على آفاق الإنسانية الواسعة .

بين الناس أفراداً كانوا أم جماعات ، فروق جمةً تلازم
تغاير الطبائع وتفاوت الملكات والمواهب . ليست طبقة
المحتاجين بطغمة ملائكة ؛ وكثيرون من طالبي الإحسان
لا يستحقون المساعدة لأنهم إنما يعيشون للكسل والخول
والتبذير اتكالاً على كرم الآخرين الذي لا يعتبرونه كرمًا
بل ضعفًا وبلاهة ، لهم أنْ يستغلّوها تارة بالبكاء ،
وطوراً بالتهديد . فالإعراض عن هؤلاء وتركهم للعوز
يربيهم فرض واجب يوازيه أهمية واجبُ البذل عند الحاجة
الصميمة التي لا تكلف فيها ولا احتيال ، ولا هي تستعمل
واسطة لتحقيق الأطماع وإرضاء الشهوات بلا عناء .

أمة بأكملها تموت جوعاً هي الأمة التي خرجنا منها
وما زلنا ندعى باسمها . أمةٌ بأكملها تحتاج إلى القوت وقد

تعذر عليها العمل لأنها 'حُرِّمت وسائله' ، فهل ننتظر
منعها جامدين أم نسمى جهداً إلى الاغاثة التي تفرضها
علينا ، لا أريد أن أقول الوطنية فحسب ، بل تفرضها
علينا أيضاً تلك الوطنية الكبرى التي ترفع المرء فوق
نفسه ، والأقوام فوق أنانيتها ، لتربطها برابطة الإنسانية
النبيلة السامية .

للأديان أئمتها وكهنتها ، وللسياسة زعمائها ومؤيدوها ،
وللحروب قوادها وجيوشها ، وللعلوم مكتشفوها
وموجدوها ، ولكلّ مذهب فلسفيّ أو اجتماعيّ أو فنيّ
أو فكريّ محبّذوه ومرّوجوه ، ولكلّ جنسيةٍ عصبيتها
وكبرياؤها ؛ ولكن هناك جنسية واحدة ، بل مذهباً
واحداً ، بل ديناً واحداً ، بل جامعة واحدة لا أئمة لها
ولا معابد ، لأنّ كل فردٍ نبيل كاهنها ، وكل قلب
معبدها ، وكل عاطفة بخورها ، وكل فكرٍ قائدها .

هي الجنسية التي تشمل الجميع بالمواطنة والرعاية عندما
تتحارب الجنسيات بالمطامع والأهوال .

هو المذهب الذي يضمّد الجراح هامساً بكلمات العطف
والسلوى حين تتنافس المذاهب في التخريب والطغيان .
هو الدين القائل بالصلح والسلام يوم تتقاتل الأديان
للتفوق والغلبة .

هي الجامعة التي يهتف بها حتى الظالمون والجنّة

ليستميلوا إليهم الانتباه والعطف العام : جامعة الإنسانية العظيمة .

فإليكن ، أيتها السيدات ، أسوق الكلام أولاً . فكم استخدمتم ابتسامتكن في أسواق الخير وأعمال الرحمة تشترين بها قوتاً للجائع وكساءً للبائس . وها قد جاء يوم من أخطر الأيام ، فيه تحتمت عليك المعونة والمباراة في الاستجداء .

إلى السوريين في جميع أقطار الشرق والغرب ، وإلى كل محسنٍ من أيّ جنسٍ ودينٍ ومذهبٍ ، تسير أنت سوريا .

إليكم أيها السادة ، وكلكم قادرون . كونوا الشجرة الكبيرة ذات الغصون الخضراء التي تُظلُّ الشقي ساعة استعمارِ المهجرة ! كونوا اليبوع الصافي ذا الأنشودة الفضية الذي يروي المسافر في الواحة الخصبية بعد قحط الصحارى وجذب القفار !

كونوا سوريين بقبور الآباء الأقدمين ، وكونوا إنسانيين برابطة الإنسانية الواحدة ! بل كونوا الآن تلك العاطفة التي تدبُّ في الجنان إشفاقاً ، وتتكوّن في الضمير واجباً ، وتبرز في العمل تدبيراً ، وتتقلب بالتنفيذ فائدة فتكون نتيجة حياة !

كونوا أولئك جميعاً ولا تفتحوا بالإبطاء قبوراً جديدة !

حفلة « ثمرة الاتحاد »

أيها السادة والسيدات ،

اجتمعنا في هذا المساء ، وفي هذا المكان ، بسمة من البسمة
القليلات بين عبرات الإنسانية الكثيرات . جئنا نقول
لليتيمة الفقيرة « لست وحيدة في العالم بل كلنا أهلك
وذووكِ » .

كم من صورة وجيعة ترسم هذه الكلمة البسيطة « اليتيمة
الفقيرة » ! من كان يتيم الوالدين كان يتيم النفس . كلُّ ما
أوجدته الطبيعة في قلب الآباء من عناية وحنان لا يعرفه
اليتيم . فما أشقاه ، لا سيما فقيراً يذوق مع مرارة الوحدة
في الحياة مرارة ذلك يرافقه الفاقة ، ومرارة الجهاد وثقل
المسؤولية المضنية .

وما أخرج موقف الفتاة اليتيمة ! إنَّ الرجل مجاهد
مناضل طبيعة ووراثه . لا يرتد أمام المسؤولية ويبتهج
بوحدته الرأي والاستقلال في العمل .

أقيمت هذه الكلمة في الحفلة التي أقامتها جمعية « ثمرة الاتحاد »
القبطية ، لمدسة اليتيمات في دار الجمعية بمقصورة الشوام بشبرا ،
ليلة ١٦ تموز (يوليو) سنة ١٩١٦ .

أما المرأة - المرأة الشرقية خصوصاً - فيألة بطبيعتها ووراثتها إلى الانزواء والخضوع والاستكانة فهي تتوجع بعامل الأحوال المتلاعبة بها إذا ما طلبت مكانة أوفق لذكائها ونزعاتها . فماذا تقول فيها إذا هي أرغمت على المجاهدة طلباً للرزق ، وسداً للعوز ، وبجناً عن مكان لها في نور الشمس وسط تزاخم هذا المجتمع المتدافع الخيف ؟
كم من عبرة تذبل عينيها ، وكم من ألم يفتّر قلبها ا
وكم تذوق في وحدتها من طعوم اليأس والهوان ، وكم تنادي الموت وتستعطفه أن يهرب بها إلى حيث لا تعاني ظلم الحياة وظلم الأحياء ا

والجتمع لا يعرف من ذلك شيئاً ، ولو عرف تفاصيل تلك الحياة الصغيرة الشقية لما همّه أمرها لانه مسوق بهمومه ومطامعه وله من دموعه وحسراته ما يجعله في شاغل عن دموع الآخرين .

لذلك كان المعتنون بهؤلاء الصغيرات ، العاطفون على اليتيمات عطف الآباء خليقين بكل تنشيط وكل ثناء . غير أن القلوب الكريمة التي تدفعها الرحمة وحبّ الخير إلى القيام بهذه الأعمال المشكورة لا تنتظر من الخارج تنشيطاً لأنه يأتيها من أعماقها الطيبة . ولا هي تحتاج إلى الثناء لأنه ينبعث من تلك العاطفة الكبيرة التي لا إسم لها ، والتي تغمر الفؤاد بعد إتمام الواجب نحو المحتاجين من إخوانه .

أما الإحسان إلى الجميع على السواء بصرف النظر عن فروق الأجناس والأديان فهو أعلى درجات الإحسان . لأنّ الإنسان إن كان غريباً عن أخيه بجواز لم يكوّن لها وقد لا يريد لها - فهو قريب إليه بإرث البشرية الأكبر : الألم والبكاء .

قالوا إنّ الأشياء العظيمة تنحدر دوماً من الأعالي ، وما ذلك إلا تملق للقائمين على رأس الهيئة الاجتماعية . ولكن أشياء كثيرة تتعالى آتية من العمق . وهل من محيط أدنى مستوًى وأعمق قراراً من البحر ؟ والبحر مستودع الآليء والعجائب ، والبحر مرضع ينابيع والأنهار ، والبحر ينبوع أفيح تمتص منه الشمس ما تعقده في الجو غيوماً لتَهطله على الأرض بركة وخيراً .

أنت يا ابنة الفاقة واليتم والألم ، أنتِ البحر الإنساني لأنك الأكثرية ولأنك من المجتمع : المرتبة الدنيا . ومن أعماقك المجهولة يستخرج عطف المحسنين ذكاءً وقادراً ، ونبوغاً عجبياً .

كفكفي عبراتك ، أيتها اليتيمة ! لئن ضاعت دموع كثيرة تسكبها الإنسانية في الظلام تحت لواحد الكواكب الصامتة ، ويدد الهواء جزافاً زفرات تنبعث من أقاصي النفس كأجزاء منها ، فأنتِ سعدتِ بالاهتداء إلى القلوب الشفيقة ، ووجدت عند الغرباء عطفاً قد يفوق عطف

الأقربين .

في ظل الجود والحنان انمي شاكرة ، يا ابنة الألم ! ثم
اخرجني إلى عالم العمل والإفادة ، قوية جادّة . والعين
الأبدية التي ترى كل شيء من وراء النجوم ، تحصي الحسنات
ولا تنسى لكريم ما يحملة إلى القلوب المصدوعة من المعونة
والسوى .

البحث العتيق

يقول الفرنسيون إنَّ أسبانيا لم تبعث إليهم إلا بملكات صالحات . أما نحن أيها السادة ، فقد عرفنا أسبانيا وقد أعجبنا بها . عرفناها بمن أعطتهم من بنيتها إلى العالم الروماني من فلاسفة وشعراء وفقهاء وخطباء وامبراطرة . عرفناها بأدائها وفنونها وبلغتها الموسيقية العذبة . وعرفناها بمساعدتها لذلك المقدم الباسل الذي ركب من البحر جواداً حروناً وما عاد من الشواطئ المجهولة إلا وقد اكتشف للعالم القديم عالماً جديداً ، كريستوف -كولومب .

عرفناها بتاريخها الطويل الكثير الحماسة ، الكثير الجهاد . عرفناها بما طوي عليه الروح الأسباني من الفروسية وطيب العنصر ، من علو الهمة ودمائة الخلق ، من توقد الفكر ودقة الفهم . وأعجبنا بما فطر عليه الأسباني من

كتبت هذه الخطبة بالعربية ثم لخصت بالفرنساوية وتليت بهذه اللغة في الحفلة التكريمية التي أقامها طلبة الفلسفة للكونت دي جلارزا المستشرق الأسباني يومئذ ، أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية ، عند انتهائه من تدريس تاريخ المذاهب الفلسفية عند اليونان والرومان . وقد أقيمت الحفلة في حديقة فندق شبرد . مساء ١٣ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٧ .

التضحية في سبيل الوطن ، والحب الشديد للحرية
والاستقلال .

إلا أن لأسبانيا حسنة خصيصة علينا نحن طلبة الجامعة
المصرية لأنها أعطتنا أستاذاً من أمثل بنيتها ، وهي حسنة
لا تقابل إلا بجميل الثناء . فلنحيّ إذاً أسبانيا الكريمة
الجميلة في شخص أستاذنا الأسباني ، ولنحيها في شخص
ممثلها الفاضل دون كريستوبال (١) فالين ومسيو دي
كاريرس !

* * *

أيها السادة ،

كان الظلام مخيماً على الأفكار . كان اسم فرجيليوس
ضائعاً بين أسماء المشعوذين ، واسم فيديادس وبراكسيثيلس
نسياً منسياً يوم صاح دانتي صيحةً ما لبث أن اتبعها
بتراركا وبوكاتشيو بصيحات متعدّدات . روح النبوغ التي
ظلت تلتقل صامتة في نفوس الأفراد خلال القرون
الوسطى ، هبطت على شعراء إيطاليا مطلقة ألسنتهم ، فكان
شعرهم عويلاً وتهليلاً ، يأساً ورجاءً ، خاتمة لعهد مضى

(١) دون كريستوبال فالين ومسيو دي كاريرس هما سفير دولة
أسبانيا ومعتمدها السياسي ، وقنصلها في العاصمة يومئذ . وكانا حاضرين
في الاحتفال .

وفاتحة لعهد جديد .

يومئذٍ ، بين جمهوريات مستعبدات وولايات نائزات ، كانت رؤما مضعضة الأركان لا تضع تاجها على رأس ملك من ملوك الغرب حتى تهدد أسوارها جيوش ملك آخر . لكن صوت الارتقاء لا يخفت مها علت حوله أصوات معاكسات . إيطاليا التي كانت تمزقها الأحقاد والأطماع تمزيقاً ، ودماء صفوة بنيتها تراق على شفار السيوف ، بينا حصونها تندك تحت لعلمة النيران دكاً ، إيطاليا الخالدة ، لم يبق لها لدى أنين قيثارة الشاعر إلا "نفس" طروبة طامحة إلى بلوغ الأقدار الخطيرة .

موجة حياة جديدة تولدت في أرض المدينة اللاتينية ، وما كان حتى استفاضت على أوروبا بأسرها . لم تلس في باديء الأمر إلا الطبقة العليا ، ولكن ما لبث أن أدخلها اختراع الطباعة إلى نفس العامة . فتغلغل مع الكتاب بين طبقات الشعوب جميعاً .

ثورة مباركة استمر لظاها في جميع فروع الفكر الإنساني . فصارت الفنون تحتذي بدائع المدينتين الإغريقية واللاتينية مضيفة إلى جمال الأصل جمالاً كَمَنَ في الأرواح . تحت طيات الألم ، مدة ألف وخمسة مائة من الأعوام . أخذت شجرة الآداب تزهو أطيب الأزهار . انقلب علم التنجيم إلى علم الفلك ، فانهدت قبة السماء الوهمية وسمع حفيف الأفلاك في أبراج اللانهاية . قامت العلوم على تعددها

تلتسع باكتشافاتها وتتقوى بتجارها ، طارده ما عثرت عليه
من خرافات وأوهام وشعوذة . رُفع أفلاطون ، المجهول
قبل ذاك إلى عرشه السامي باسطاً على النفوس جمال
فلسفته الشعرية . وذلك العهد المجيد ، عهد إحياء الفنون
والعلوم والآداب ، دعي عهد الانبعاث .
أهيا السادة ،

تاريخ القرون الوسطى الذي انتهى في أوروبا بابتداء
القرن الخامس عشر ، يكاد يمتد عندنا إلى أواخر القرن
التاسع عشر . إلاّ افراداً فكروا في وحدتهم منعزلين عن
محيط بينهم وبينه أبعد الغربات وامرّها ، غربة الروح .
فتركوا لنا في كتاباتهم آثار نبوغهم . آثاراً اذا ما
استجوبناها الآن عجبنا من تغلبهم على كل حائل في سبيل
العلم واخذنا بالإشفاق عليهم لأنهم كانوا يستحقون السعادة
ولم يسعدوا .

واذا استثنينا فئة سمّت منها المطالب فشغفت بفكرة
الارتقاء ، أليست هذه السنوات الأولى من القرن العشرين
أشبه شيء بعهد القرون الوسطى نظراً إلى حالة العامة ؟ .
الشعب هنا مستودع ظلام وجهل ترتع في ربوعه الخرافات
والسقاء . ولا أظن أنّ ما ينقصنا هو اختراع الطباعة
لندخل أشعة الفكر مع الكتاب إلى تلك النفوس النائمة .
ولكن نتنظر التعليم الإجباري ، نتنظر عمل المدارس
الابتدائية منها والعليا ، نتنظر الوقت أبا العجائب ، نتنظر

زيادة غيرة في الرؤوس المفكرة ، وزيادة تحفز في الهمم
 النهضة ، لتسير في طريق فوز ميمون إلى عهد جديد
 يخرجنا من ليل القرون الوسطى إلى نهار البعث العتيد .
 اشتهر أحد الرومان بكلمة ردها سنوات طويلة وهي:
 « فلنهدم قرطاجنة ! » . وفي نفس الفئة الراقية عندنا أمنية
 ثابتة وهي : « فلنهدم الجهل ! » وإنما تهدم المدائن بقنابل
 المدافع ؛ وأما الجهل فظلام ، والظلام لا يهدم إلا
 بتغلب النور .

النور ! النور ! نريد النور دوماً وفي كل مكان ! نريد
 ارتفاع النفوس إلى أوج تفهم عنده جمال الرجاء ، جمال
 الإشفاق ، جمال الواجب وجمال الخير ! نريد أن يفهم
 الرجل كرامة المرأة ، وأن تفهم المرأة كرامة الإنسانية !
 نريد أن نعرف ذلك العبودية كي ندرك عز الحرية ! نريد
 أن نكسر قيود الإرغام كي نعيد ذواتنا اختياراً بواجبات
 سامية . نحن نعلم أن قيود الحرية أوفر من قيود الظلم
 عدداً ، وأدق نوعاً ، وأوجع وطأة ، ولكن في قيود
 الظلم إذلالاً يسحق الشخصية هابطاً بالإنسان إلى تحت درجة
 الإنسان ، وفي قيود الحرية عزة تعلو بالمرء إلى قمة العظمة
 فتصيره إنساناً كاملاً ، يقوى على النظر ملياً في وجه
 الإنسانية المجاهدة قائلاً : « أنا ابنك وقد صيرني جهادي
 أهلاً لهذه النبوة المقدسة ! »

* * *

أيها الأستاذ الكريم ،

نحن جزء من الفئة التي ذكرنا . ولقد صدق فينا مثل أهل « اليوجا » الهندية القائل : « اذا استعد التلميذ جاء الأستاذ » . ساعة تقف نفوسنا حائرة عند أبواب المستقبل تتجاذبها عوامل الشك والرجاء فتدفعها حيناً وتحجمها حيناً - في هذه الساعة الخطيرة من حياتنا الأدبية نراك عاملاً يداً بيد مع أساتذة جامعتنا الأفاضل ، ومع نفوس غيرة أخرى تعمل لنهضتنا بالسكوت وبالقلم وباللسان ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

أنت الغريب عنا جغرافياً نراك من أكثر الناس اهتماماً باتجاهنا المعنوي . وهل يمكن أن يكون المحسن غريباً ؟ نراك ساعياً إلى إنهاض المدارك منا بحلم العالم الذي قد سبق وطوى طريقاً يقودنا الآن فيها ، وجمال في أحنائها ومطاولها فوقف على ما يملأها من مجيد الصعاب . وهناك في قاعة الدرس الصغيرة حيث يدخل شفق المساء على عجل ، وتُسرج المصابيح سريعاً ، كم استحضرت اشارتك الواسعة نوابغ الأجيال بتوقد عطاردي ، وبرصانة مفكر قد اعتاد تسم الذرى العقلية . فسردت مذاهب المتقدمين باسطاً أقوالهم ، مفنداً آراءهم ، شارحاً ما لامس منها الإعجاز ، ملخصاً نقد الناقدين فأتياً بالنقد عليها جميعاً . ذلك بسلاسة وإيجاز تكسوها بلاغة عبقرية قد تكون انتهت إلى الأسبان كإرث شيشروني .

وبينا بيانك يزيع حجباُ ضربن بين المعاني والافهام
إذا بالنفوس منا تثب مطلاتٍ على آفاق جديدة . فيلحقنا
عطش العلم ، وتأخذنا رغبة السؤال . وروحك الكبيرة
العالية منهل نور وحكمة ، كلما استقينا منها معرفة
وضياءً زادت تدفقاً وتدفتت سخية ، وديعة ، صافية ،
يتألق في توجها حب العلم وحب الكمال .

اليوم عيد شكرنا . ولئن ذكرنا باغتباط وامتنان
ساعات تفيض بها علينا سني هباتك فانا نذكر بتهيّب
ساعات اخرى كثيرات لا نسمعك فيها ، ولكن نعرفك
في غيابك عاملاً لخيرنا . تلك ساعات العزلة إذ يختلي
الأستاذ بنفسه مهملاً ضوضاء العالم . ساعات سكوت وتأمل
تجعل الفيلسوف عميقاً كالبحر لا تقلقه العواصف ولا تكدره
الدلاء .

نراك منحنيًا على كتب كثيرة تتصاعدُ من صفحاتها
صور الحياة وخيالات اللانهاية . تقابل بين لغات قديمة
ولغات حديثة ، وتقارن بين أسلوب وأسلوب ، وتعبير
وتعبير ، لتنتقل إلى لغة العرب حكمة شقيقتها في المجد
والقدم ، ومناظرتها في الفصاحة والغنى : الإغريقية
واللاتينية . لكنها على شهرتها لم تلتسرا انتشارها . ارتفعتنا
حيناً الى أوج الحياة والعظمة ولم يكن ان هبطت كل
منها مع مدنيتها . أما أختها الثالثة ، لغة مكة والحجاز
والعراق ، فلها الغلبة ولها البقاء ولا يزيدا كره الدهور

إلا فتوةً وجمالاً لان لغة القرآن لغة خالدة .

إننا ننحني باحترام لدى ذكر تلك الساعات النفيسة ،
ونستزبدك منها لأننا في حاجة إلى أثرها في نفسك وفي
حاجة إلى نتائجها الجليلة . ولئن استشعرنا بما تجده من
العناء الكثير قرب الارتياح الجزيل في عملك المجيد ، فإننا
نعلم كذلك أن من كان مثلك ما أهمته الحوائل إلا همة
ونشاطاً ، وما زادته المسؤولية إلا توهجاً وإخلاصاً .
واللغة التي أحببتها وأنزلتها من علمك الواسع منزل الكرامة
حتى تملك أعنة الكلام فيها سوف تجازيك جيلاً ،
سوف تحفظ تعاليمك بين كنوزها الغاليات ، سوف تفتح
كتابها الذهبي لك وتضم اسمك إلى أسماء أبنائها الخالدين !

عاش الكونت دي جلارزا !

عاشت الجامعة المصرية !

عاشت نهضتها الحديثة !

وداع الاستاذين

أيها السادة ،

في أعالي الفلك صورة سماوية تدعى « الشلياق » أجمل نجومها نجمٌ من القدر الأول اسمه « النسر الواقع » وهو درة فريدة تبهر الأبصار زرقتها اللامعة . رصده علماء الفلك فوجدوه محجة الكواكب . وجدوا أن جميع الكواكب المنظورة تندفع نحوه في الفضاء وهو لبعده الشاسع لا ينتهي اليه نظامنا الشمسي إلا بعد ملايين الدهور . وقالوا إن حياة ذلك النجم قد تكون انقضت ، وإن نوره قد يكون خبا منذ عصور ، ولكن ما قام بيننا وبينه من مسافة هائلة يمكننا من مشاهدة ذلك النور أحقاباً طوالاً .

أيها السادة ،

النجم الذي لا تعرف منه الأنظار والمراصد إلا شعاعاً

ألقيت في الحفلة التي أقامها في فندق شبرد في آخر يناير سنة ١٩١٨ طلبة كلية الآداب العربية في الجامعة المصرية لتكريم الاستاذين الشيخ محمد الحصري مفتش أول اللغة العربية في وزارة المعارف الذي كان يدرّس في الجامعة تاريخ الأمم الإسلامية ، والشيخ محمد المهدي وكيل مدرسة القضاء الشرعي الذي كان يدرّس تاريخ الآداب العربية .

مجهول الأمس والغد ، نجد في الإنسان قوة تمزق عن كيفية تكوينه حجبا كثيرة . وما هي إلا تلك القوة التي تقدها الرغبة فتنتلق باحثة بين ما يُرى من العوالم وما لا يُرى مستقرئة هس الضياء ، قائسة توج الأثير ، متمسة ضمير الورى . هي مفرقة الشعوب وجامعتها التي كانت حيناً بعد حين ضلالاً وهدى ، وظلاماً ونوراً ، وهما وحقيقة . هي مرشدة الأمم كيف ترفع الأمم رأسها لنيل حقوقها ، ومعلمة الأفراد كيف ترقى الأفراد مطالبها لنيل بعيد الغايات . هي مدونة الأسفار ، ومبتكرة الفنون ، ومستجوبة العلوم ، وغالبة الآفاق على شمسها ، والبحار على خفاياها ، والنفوس على أسرارها . هي التي شادت دهرأ بعد دهر نينوى وبابل وصور وأورشليم وأثينا وروما والإسكندرية . هي التي تعلق بالمدينيات وتهبط بالشعوب لأنها أقوى من الشعوب والمدينيات ، وهي أبدأ حاضرة متنقلة فعالة كالنور لا تلمس ولا تنضب ، ولعل سرها سر النور وعصرها عصره . ألا وهي الفكر الإنساني .

لئن كان الفكر في الكهولة مهيباً برصانته وقدرته فهو في الشيبية شيق بتدده وحميته لأنه قوة في طور التكوئن . فما أحوجها في ذلك الطور إلى يد حكيمة تثقفه وتقوده وتغذيه بتلك المباديء التي توسع الحياة وتكسبها علواً كبيراً . لذلك كان التعليم صرح المدنية ، وكانت المدارس مصابيحها ، وكان الأستاذ فيها كاهن النور ورسول العرفان .

وما التعليم سوى تصويب الفكر نحو غاية 'مثلى' ، يجمع في سيره إليها من الخبرة والمعرفة ما يؤهله لإدراكها وتقديرها ؛ ولا الارتقاء سوى مجموع تلك الخبرات والمعارف الطيبة نافذة ناموساً في الجهاد اليومي والأعمال العادية .

لا يحتاج الارتقاء إلى جيوش وجحافل تدخسه بين الأقوام . ولكن انشر كتاباً مستحبتاً إلى أمة ترّ الدماء 'تهرق لحفظ كرامته لأنه أناها بما لا تأتبه الحروب . بلاد الإغريق صغيرة بمساحتها ولكنها كبيرة بإشراق نورها على بني الإنسان . روما مدينة ليس إلا' ، ولكن هذه المدينة تملأ العالم . اذا ذكر الإنجيل انحنى الرؤوس لإجلالاً وتجمهرت النفوس حباً حول السيد المسيح : أستاذ الرحمة والغفران . وكفى التلطف باسم القرآن لتهاز القلوب طرباً على وفق الآيات والاسجاع مرقلة مع السور اسم النبي العربي .

أيها الأستاذان الجليلان ،

سنوات مررن وأنتم تثقفان من شبيبة وطنكما الفكر والخلق . وتفيضان عليها ما حواه صدركما الرحب من بلاغة الكتاب العزيز وعلوم لغته الشريفة . بحث الأستاذ الشيخ المهدي في آداب العرب ، ففتح أمامنا تلك الكنوز الثمينة ، وأعلمنا أن 'العربي ذو استعداد أدبي وعلمي كبير . فوجدنا سائق الأظعان نظاماً إن لم نجده شاعراً ، ووجدنا الراعي عالماً بالهيئة السماوية ودورة الكواكب ، وخلصنا المستعطي العاني فيلسوفاً حكيماً ، وسمعنا قائد الجيش

خطيباً . وإذ رأينا فتاة العرب تبكي إذا بدموعها درر
ترصع الأوزان ، فهبطنا إلى نفسنا فإذا هي قيثارة تثن
شجنًا كلما نقرت على أوتارها يدُ الفنِّ ويدُ الألم .

واستخرج الأستاذ الشيخ الحضري تاريخ الأمم
الإسلامية من مخابثه ، فسير أماننا مواكب دول الفتوح
منطلقة لاجتياح ما استطاعت من القارات الثلاث ، تحمل
إليها مدنياتها مشيدة فيها معاهد التأديب ، مقيمة بنايات
العلم ، رافعة بيوت الصناعة ، ضاربة للعدل رواقه ، وممددة
للأمن أطنابه . يوم كانت همتها القعساء تستثير شجاعة
الشجعان مندفعة نحو قصيِّ الربوع كالسيل الجارف ، إن
اعترضها في اندفاعها حصون نشرت عليها أعلامها ، أعلام
الفخر . أو قام في سبيلها عواصم طوّقتها حصاراً مرددة
أهازيج النصر . ونفوسنا لدى مشاهد العظمة العربية إنما
تنقلب قواها تحفزاً وحاساً شديداً .

أيها الاستاذان الكريمان ،

لكما عندنا كلمتان : كلمة شكر وكلمة أسف . أما
كلمة الشكر فنحتفظ بها في سويداوات القلوب لا نتمحى
حروفها ولا ييجفل معناها ، بل تظل نامية لنودعها حية
صدر أجيال مقبلة . وأما كلمة الأسف فلا نفوه بها .
لأنه وإن خسرتكما جامعتنا المصرية ، فأنتم على الدوام
ربحٌ شبيبة تستظلُّ بحماكما مستوثقة بعمود لا تنحان .

وحياتكما الثمينة السقي وقفهاها على خدمة العلم مستودع
فضل عميم سوف نغترف منه طويلاً إن شاء الله .
ولكننا نقول كلمة ثلاثة هي هذه : القيا نظرةً على
الماضي تريا سهلاً يموج فيه نضار حصاد أوجدته أياديكما .
وانظرا إلى المستقبل 'تبصرا مروجاً فسيحة تلتظر منكما
بذور العرفان لتنمو لمصر حصاداً عسجدياً !
عاش الأستاذان الجليلان !

الاجراء

أيها السادة والسيدات ،
يعزّ عليّ أن يصمت الصغار لأتكلّم أنا . لكنني أسألكم
أن لا تصغوا إلى صوتي فهو ضعيف لا تهتز له موجات
الهواء إلا قليلا . بل اصغوا إلى ذلك الصوت الهامس لكل
نفس في وحدتها حتى إذا اجتمع الأفراد جمهوراً ارتفع
ذلك الصوت واختلطت معانيه بمعاني أصوات تحيط به ،
فأصبحت الأصوات الكثيرة صوتاً واحداً شاملاً يهز القوم
هزاً مهما اختلفوا جنساً وعقيدة ومصالحة وميولا . يسمي
علماء النفس هذا التأثير الواحد الذي يخضع له الجمهور
« نفس الجماعات » أما سادتنا الأطباء الذين وجدوا العدوى
في كل مكان فقد دعوهُ « عدوى عصبية » .

الكلمة بخيفة قليلا غير أنها عدوى مستحبة تتحد
القلوب تحت تأثيرها ، فيطرب الجميع لطرب واحد ،
ويتوجعون لحزن واحد فيسعون لمصلحة شريفة واحدة .
في هذه العدوى شاهد على أن بين الغريب والغريب صلة
قراية شديدة ، وما تلك الصلة إلا مظهر من مظاهر

ألقيت في حفلة جمعية القديس جاررجيوس السورية الأرثوذكسية
في ٣ آذار (مارس) سنة ١٩١٨ .

الإخاء الكمين.

إن كلمة الإخاء التي ينادي بها دعاة الإنسانية في عصرنا ، ليست ابنة اليوم فحسب ، بل هي ابنة جميع العصور . وقد برزت إلى الوجود منذ شعر الإنسان بأن بينه وبين الآخرين اشتراكاً في فكرة أو عاطفة أو منفعة ، وبأنهم يشبهونه رغبات واحتياجات وميولاً . يجب أن يتألم المرء ليدرك عدوية الحنان ، يجب أن يحتاج إلى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره إليه ، يجب أن يرى حقوقه مهضومة يُزدرى بها ليفهم أن حقوق الغير مقدسة يجب احترامها ، يجب أن يرى نفسه وحيداً ، ملثاعاً ، دامي الجراح ليعرف نفسه أولاً ثم يعرف غيره ، فيستخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاقد . كذلك ارتقى معنى الإخاء بارتقاء الإنسان .

في جمعيات سرية وعلنية ، في جمعيات علمية وفلسفية ودينية وروحانية استعملت كلمة الإخاء بين الإنسان والإنسان قروناً طويلاً ، حتى جاءت الثورة الفرنسية تهدم أسوار العبودية بهدم جدران الباستيل ، وتعلن حقوق الإنسان مستخلصة من بين الأخرية والدماء والجماحم ، كلمات ثلاثاً هن " شعار العالم الراقى : حرية " ، مساواة ، إخاء .

حرية ، مساواة : كلمتان جميلتان يخفق لهما قلب كل محب للإنسانية لكن - لا بد لكل شيء من « لكن » -

هل كان تحقيقها في استطاعة البشر؟ ما أضيقت معنى الحرية إذا ذكرنا أن مجموعة الكائنات تكون وحدة العالم، وأن على كل منها أن يصل إلى درجة معينة من النمو مشتركاً مع بقية الكائنات في إكمال النظام الشامل. وفي وسط هذا النظام القاهر نرى الإنسان وحده متصرفاً في أفعاله بشرط أن يخضع للقوانين المحيطة به والنافذة فيه. هو حر بشرط أن تنتهي حريته حيث تبتديء حرية جاره، وبشرط أن يعلم أنه حيناً وجه أنظاره وأفكاره وجد نظاماً معيناً؛ وأن حريته، كل حريته، قائمة في اختيار السير مع ذلك النظام أو ضده، واستعماله للخير أو الشر، للربح أو الخسران. فما أكثرها شروطاً تقيد هذه الحرية التي تندك لأجلها العروش وتتطاحن الأمم للحصول عليها!

أما المساواة فحلم جميل ليس غير. لأن الطبيعة في نشوئها التدريجي لا تعرف إلا الاختلاف والتفاوت. أين المساواة بين النشيط من البشر والكسول، بين صحيح البنية والعليل وراثته، بين الذكي وغير الذكي، بين الصالح والشرير؟ كلا، ليست المساواة بالأمر الميسور بل هي معاكسة لنظام حيوي إذا غولب كان غالباً قاهراً.

كلمة واحدة، تجمع بين حروفها الحرية والمساواة، وجميع المعاني السامية والمواطف الشريفة. كلمة واحدة تدل على أن البشر إذا اختلفوا في بشريتهم اختلافاً مبيناً

فهم واحد في الجوهر ، واحد في البداية والنهاية . كلمة واحدة هي بلسم القروح الاجتماعية ودواء العليل الإنسانية ، وتلك الكلمة هي الإخاء . لو أدرك البشر أخوتهم لما رأينا الشعوب مشتبكات بحروب هائلة صرعت فيها زهرة الشيبية ، وما زالت الدماء جارية في القارات الأربع وما يظللها من سماء ويتخللها من ماء . لو أدرك البشر أخوتهم لما وجدنا في التاريخ بقعاً سوداء تقف عندها نفوسنا حيارى . لو أدرك البشر أخوتهم لما رأينا المطامع تدفع الأمم القوية إلى استعباد الأمم الضعيفة ، لو أدرك البشر أخوتهم لما سمعنا في اجتماعاتنا كلمات جارحات يجازف بها كلٌ في حق أخيه ، وهي من أركان أحاديث صالوناتنا الجميلة . ولكن لننزلن قليلاً إلى ما هو تحت السياسة والتاريخ والصالونات لننزلن إلى مهبط الشعب حيث الشقاء نحيم ، واليأس مستديم .

ما أوجع منظر اليد الممتدة للاستعطاء ! إنه يدل على احتياج الجسم إلى القوت ، ويدل خصوصاً على جوع النفس وفقدانها لتلك الأفكار التي تعلي المرء في عين نفسه ، وتلك العواطف التي تجعله شاعراً بأنه جزء مهم من هذا العالم البديع . عواطف نبيلة ، وأفكار عظيمة ، لكنها تذبل تحت ضغط الحاجة المتتابع ، وتتلشى مع استمرار الفاقة والذل والانكسار . إلى أين تذهبون أيها السائرون في مركباتكم الفاخرة ؟ إلى أين تسرون أيها الضاحكون ؟

تتكلمون عن جمال الحياة وعظمة الكون ، وتذكرون بسات
الربيع وإخلاص الاصدقاء . أما تلك النفوس الشقية فلا
تدري من ذلك شيئاً ، ما الإنسان في شرعها إلا عدو
لدود ، وما الحياة إلا سرير الغوم ومستودع البلايا .
أنتم السعداء تستسلمون لعذوبة الحب وطهر الولاء ، وهم
البؤساء يطوون على الحقد أحناء صدورهم ، ويكظمون
حقداً تذكو جمرته مع الأيام . وفي هذه الطبقة الجائعة
الذليلة الدائمة الانفعال تكوّنت بذور ثورات هائلة نمت
فاتسعت فزلزلت الممالك زلزالاً .

غير أنّ فئة من هذه الطبقة لا تعرف تمرّداً ولا تكظم
حقداً ، وهي أوجع فئة ، لأنها تتألم صامتة ، ولا ترجو
راحة وسلاماً إلا من الموت .

وإذا ظننتم أنّي أتكلم كشاعر يهيم في أودية الخيال ،
فهاكم حقائق ملموسة : منذ أشهر قليلة انتحر شاب في
الثامنة والعشرين من سنه . كان له أمٌ جائعة ، وكانت
أبواب الرزق مقفلة في وجهه ، فالقى بنفسه في النيل
تخلصاً من الحياة . بعد ذلك بأسابيع قليلة ، مات شيخ
في الثمانين من عمره كان يستعطي على مقربة من جسر
بولاق ، وقد أسفر التحقيق بعد موته عن أنه لم يتناول
قوتاً منذ خمسة أيام .

في أواخر الصيف الماضي وجد بوليس الإسكندرية
أربعة أيتام بلا مأوى ، سار بهم إلى المعاهد الخيرية ،

لكن " معاهد البر حددت عدد من تقبلهم في هذه الاعوام
 بحكم الظروف الاقتصادية . فعاد البوليس بالأطفال إلى القسم
 حيث جلسوا ليكون ، ولما سئلوا عما يحزنهم أجابوا
 انهم لم يأكلوا منذ ماتت أمهم أي منذ ثلاثة أيام .
 إنني أتذرع بصوت هؤلاء البائسين ودموعهم لأصرخ
 أن مثل هذه الفواجع يجب أن لا تكون ، ولأقول إن
 الاجتماع بأسره مسؤول أمام ضميره عن إهماله وقسوته .
 وإنه ما دام في وسطه شهيد واحد من هؤلاء الشهداء ،
 فهو قاتل جانٍ . فالاجتماع جسم واحد ، سواء شاء
 الأفراد أم لم يشاءوا . والبشر على اختلاف طبقاتهم أسرة
 كبيرة واحدة . تلك سلسلة قيدتنا بها يد الله ، فمن حاول
 كسر حلقة من تلك السلسلة جرح نفسه ، وكان لغيره
 مؤذياً . ليس من عار أن يكون المرء عليلاً في أسرته ،
 أو ضعيفاً بين إخوانه ، بل هناك امتياز يجعل الضعيف ،
 أو الحقير ، أو الجائع محبوباً أكثر من غيره ، لانه يحرك
 العطف والحنان في القلوب المتحجرة ، ويلبه السعيد من
 إخوانه إلى واجبه نحو المحروم من نعم الحياة .
 من المفكرين من يقول بإمكان حذف الفقر وملاشاة
 الألم . لكن ذلك مستحيل ، وسيظل الفقر موجوداً ما
 دام أحد الناس أوسع ثروة من غيره ، فكان الآخري
 فقراء بالنسبة إليه . ثم إن الفقر النسبي ممر لازم إلى
 الغنى ، وهو منبه للذكاء ، مهيج للرجائب ، تحتدم فيه

نار قوى عديدة ، طالما أطفأت جذوتها عيشة الرغد
والهناء . أما الألم فناموس قهّار ، وهو المهذّب الأكبر
الذي يعلمنا دروس الحياة كلمة فكلمة . هو النار المطهرة
النفس من كل غشٍّ وفساد ، حتى تتركها جوهرة لامعة .
هو دافع بالمرء إلى داخل نفسه حيث يجد قوّته واقتداره ،
وينعلم الرحمة والإشفاق . لأنّ الذي لم يرَ دموعه هاطلة
على أرض صماء ، ولم يشعر بأنّ دماء قلبه تسيل نقطة بعد
أخرى ، ولم يبصر حجاب اليأس مسدولاً بينه وبين
البشر ، ذاك الذي لم يتوجع باحتياجه إلى التعزية كيف
يمكنه أنْ يشفق ويرحم ؟ كيف يدخل إلى قلوب الغير
ويلمس موضع اللوعة منها ؟ نعم الفقر والألم ضروريان
للحياة . ولكني أقول بإمكان استئصال الفاقة . فالفاقة
برص اجتماعي ، وكما تلاشى البرص من جسم الإنسان ،
يجب أنْ تتلاشى الفاقة من جسم المجتمع . ولا يتم ذلك
إلاّ إذا ترابطت منا الأقلية القادرة العاملة ؛ لا يتم ذلك
حتى يذكر الأقوياء أنهم إخوة للضعفاء ، فينحنون على
نفوس محزونة تضج بالأسى ضجيجاً ، ويرفعونها إلى مستوى
يتعاضد فيه الجميع ويتساندون . لا يتم ذلك حتى يصير
ناموس تنازع البقاء السائد في عالم الحيوان ناموس التعاون
على حب الحياة السائد في عالم الإنسان .

ما هو النهر أيها السادة والسيدات ؟ وهل يكون نهراً
إذا هو انبثق من مصدره ، وانصب في البحر دفعة واحدة؟

انما يتفجر ينبوع النهر في أعالي الجبال ، فيهرول مقهقهاً
 على الصخور ، حتى اذا ما حشر وسط الشواجن الخضراء
 ملأ الوادي الحائناً وأنعاماً . يجري في الصحارى والقفار
 فتقلب القفار والصحارى مروجاً خصيبة وجنات زاهرة .
 يسير في البادية والحضر على السواء فيروي سكان المدينة
 وأهل القرية بلا تفریق بين الشريف والحقير . يرضع
 الأشجار بتغلفه في صدر الأرض الملتهب ، ويغذي الأثمار
 والنبات ناظماً لآليء في ثغور الورود . وكلما وزع من
 مياهه زادت مياهه اتساعاً وتدفقاً ، فيتابع السير بعقيقه
 الفخيم واسع العظمة رحب الجلال . حتى اذا ما جلب
 النفع على الكائنات ، وملأ الديار خيراً وثررة وجمالاً ،
 رأى البحر منبسطة لاحتضانه ، فشق الشهبى الأخير ،
 وانصبّ في صدر البحر مهلاً مكبراً . كذلك عاطفة
 الأخوة لا تكون أخوة حقيقية إلاّ اذا خرجت من حيز
 الشعور إلى حيز العمل . تتفجر عدوبتها على ذرى الاجتماع ،
 وتجري نهراً كريماً بين طبقات المجتمع ، فتلقي بين المتناظرين
 سلاماً ، وبين المتدينين تساهلاً ، وتنقش محامد الناس على
 النحاس ؛ أما العيوب فتخطتها على صفحة الماء . تساعد
 المحتاج ما استطاعت بلا تفریق بين الحمدي والعيسوي
 والموسوي والدهري . ترفع المسكين من بؤس الفاقة ،
 وتشر على الجاهل أشعة العلم والعرفان ، وتفتح أبواب
 الرجاء لعيونٍ أظلمتها أحزان الليالي . فكم من درة في

أعماق البحر لم تسرّ بها النواظر لأن يد الغواص لم تصل إليها ! وكم من زهرة نورّت في القفر ، فتبدد عطرها جزافاً في الهواء ! إنما الإخاء يزيح بيده الشفيقة الشوك عن الزهرة المتروكة ، ويرفع لها جدراناً تقيها ريح السموم الفتاك . هو العين المحبة التي ينفذ نظرها إلى أعماق النفس فتزى أوجاعها . وهو الهمة العاملة لخير الجميع بثقة وسرور ، لأنه القلب الرحيم الخافق مع قلب الإنسانية الواجف .

الإخاء ! لو كان لي ألف لسان لما عييتُ من ترديد هذه الكلمة التي تغذت بها الضمائر الحرة ، وانفتحت لها قلوب المخلصين . هي أبداع كلمة وجدت في معاجم اللغات ، وأعذب لفظة تحركت بها شفاة البشر . هو اللين والرفق والسماح ، كما أنه الحليم والحكمة والسلام . لو كان لي ألف لسان لظلمت أنادي بها « الإخاء ! الإخاء ! » حتى تجبر القلوب الكسيرة ، حتى تجف الدموع في العيون الباكية . حتى يصير الدليل عزيزاً ، حتى يختلط رنين الأجراس بنغمات المؤذنين ، فتصعد نحو الآفاق أصوات الحب الأخويّ الدائم .

أحييتك يا معهداً أحسنت عائدة على البائسين ، فضممتهم إليك ليشرع اليتيم بأنّ له والدين إذا قضى الوالدان . وعنيت بصغارٍ وصغيرات هانوا على مصائب الدهر ففتحت أمامهم سبل الرجاء ، وعلمتهم لشيد العصر ، وهو نشيد الحياة القائل :

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَارْتَسِبْ أَدَبًا
يُفْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
إِنَّ أَلْفَتِي مَنْ يَقُولُ هَذَا إِذَا
لَيْسَ أَلْفَتِي مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

أحيكم أيها المحسنون أغنياء كنتم تعطون البائس من ثروتكم والضعيف من قوتكم ، أم علماء تفتحون عيني الجاهل على آفاق الضياء ، وتذكرون الإنسان أن بيننا جسده مقيد بقيود المادة ، فإن روحه تقطن دائرة النور الأظهر . وإذا صدق أوغست كونت بقوله : إن الإخاء يجب أن يكون ديناً اجتماعياً عاماً ، وإن الإنسانية يجب أن تكرر أعياداً لأعظم رجالها وكبار محسنها ، فأنتم أولئك الأعظم والمحسنون ، وبدلاً من أن تتلاشى تحيقي على أجنحة الهواء ، وددت أن أخطأ خالدة بأحرف النور على جبهة السماء !

أيها السادة والسيدات ،

لقد شاد قدماء المصريين أهراماً تناطح الجوزاء عظمتها ، وتحير العقول أشكالها الهندسية ، ورموزها السرية . ونحن أبناء هذا العصر ، نريد رفع هرم جديد يكون أعمّ منفعة وأوسع فائدة . ذلك منارة الصحراء ومدفن الفراعنة ، وهذا منارة البؤساء ومدفن الذل والشقاء . ذلك يتركب من أحجار ضخمة ، وصخور منحوتة ، وهذا يتألف من مدارس للبائس واليتيم ، وملاجيء للمعجزة ، وجمعيات برّ

تساعد الأرامل والمحتاجين وتمتد سبيل العمل للعاملين .
ذاك يلحم فيه بين الحجر والحجر طين الأرض ، وهذا
يربط معاهده تبادل الرغائب الشريفة ، ويسير أعماله اهتمام
الأخوة العالية . ذاك رُفِع بعرق البؤساء ودم العبيد ،
وهذا يرفع بعطايا المحسنين وكرم ذوي الأريحية . ذاك لم
تفهم أسراره إلاّ الأقلية النادرة ، وهذا تتهدب في مدارسه
الأكثرية البائسة فتسمو في سلم الإنسانية ، ويرتقي بارتقاها
الاجتماع بأسره .

فيا رُسُل جمعيات البرّ في هذا الاجتماع الجليل ساعة
تعودون إلى إخوانكم وإخواننا من مسلمين ومسيحيين ،
قولوا لهم : إنكم رأيتم هيكلاً جديداً من هياكل الإحسان ،
ومعهداً ينضمّ إلى معاهدكم السامية .

قولوا : إن الرجال يعملون فيه بسخاء وغيره وهمة
تتزايد مع الأيام ، وإن السيدات يسابقنهم بما عندهنّ من
عطف وذكاء وحنان ، لأنّ أشرف موقف يظهر فيه حب
المرأة هو موقف البرّ والإحسان . وإذا امتدت لكم من
هذا المعهد الحديث يد ، فلا تسألوا هل هي مصرية أو
سورية أو أجنبية ، بل صافحوها تعلموا أنها يدكم بعينها
لأنها يد الإخاء الإنساني العظيم !

فضل الآداب

يرجع أثر الصناعة والتجارة في تكوين العلاقات الاجتماعية إلى عهد أبعد كثيراً من يوم وطأ الفينيقيون الشاطيء الإغريقي للمرة الأولى ، وربما انتهى بنا إلى فجر تاريخ العمران . ولولا تلك العلاقات ما اختلطت الأقسام ، ولا تمازجت الأجناس ، ولا تكونت المدينة ، ولظلت الجماعات في وحدتها الاثنوغرافية ، وانقطاعها الحيوي ، بعيدة بعضها عن بعض . ولو كان ذلك لفنيت العشائر وانقرض النوع في زمن قصير .

وجدت الصناعة والتجارة فزاد تبادلها في ثروة الجمهور ، وجلب الرخاء فتعددت مثلُ الانتاج ، وتوفرت للأفراد سهولة المعيشة . ولئن أثر ذلك التبادل في الظواهر الحسية ، وأتى بتغيير محتم في عادات البلاد ومشارب أهلها مرهفاً عندهم تطلُّب الكماليات ، فإنه لم يفلح يوماً في التقريب بين الشعوب وحذف ما بينها من نفور وخصام ، وتوحيد الرأي والكلمة منها . فهو إن لم ينبه فوراً الحسد

ترجمة الخطبة الإنجليزية التي تليت في حفلة أقامها في فندق شبرد طلبة قسم الآداب الإنكليزية في الجامعة المصرية لتكريم أستاذهم في أواخر نيسان (ابريل) سنة ١٩١٨ .

والطمع وحبّ المنافسة ، وإن لم يوقد حروباً ويُقمّ معارك هي من الهول والفظاعة ما شهده العالم في أيامنا ، فهو يترك الناس إلى وقت في خلوة غافلين عن المزاحمة والمقاومة ، راكنين إلى التمتع والتلذذ ، لأنه قاصر على عالم المحسوس السطحيّ - ذلك العالم أسير التغير والتبدّل وعبد الاختلاف والتعدّد على الدوام - .

إنما الشعوب كالأفراد لا يتفاهمون إلا بالتألف الفكري ، ولا يتوحدون بغير التمازج الروحي . متاعُ المصانع ونتاج المعامل يحفظ أبدأ طابع الشعب الذي ابتكره أو عالجّه . ولكنّ أهل الفكر والعبقريّة لا يُسبكون في قالب ولا يحملون طابعاً ، بل يخلصون الإنسانيّة بأسرها ، ويخمدون الجميع بلا حصر ولا استثناء . يتكلمون ويعملون ويكتبون ، وسواء هم أفصحوا عن نظراتهم ومشاعرهم باليونانية واللاتينية أو العربية والهندية ، فإنما هم يترجون عن حاجات بشريّة ، ورغبات إنسانيّة تجمهرت في نفوسهم الكبيّرة الحساسة .

ما غرض الأدب والبيان سوى التعبير عن الفكر والعاطفة كلاماً وكتابةً ، ونقل صور ذهنية خفية إلى عالم الاطلاع والاستعراض . يفضي كل شعب بسرّات ضميره على أسلوب خاص ، ويطلق شعراً ونثراً ما كُن فيه من كآبة وحنين إلى مثله أعلى هو قدوته وقبلته . حتى إذا ما أودع الكتب ما يسميه آداباً وفلسفة وعلماً ، وبعث

بتلك الكتب إلى البلاد القصية ، فكأنما هو ينفذ رسالة حُبِّ وتبنيه وتقام إلى إخوته وأخواته بالحياة والإنسانية والقدَر ؛ بل كأنما هو يريهم من نفوسهم وجهاً جديداً وشكلاً طريفاً . ليست الكتب لمؤلفيها ، ولا الآداب لموجديها بل هي إرث من تطلبها وملك من انتفع بها . وليس الفرد في ذاته أهلاً للإعجاب ، إنما هي الإنسانية عجيبة بما تلازب فيها من مدهش القوى والممكنات ؛ الإنسانية وحدها عظيمة بما تأتيه من الأعمال الباهرات . أما النوايغ فأفراد اختارتهم الحياة لإدراك وسط يعيشون فيه والوصول إلى أقصى رغائبه وألبس نزعاته ، فهم بذلك أقرب من سواهم إلى أغوار الروح الإنسانية ، وأسرع فهمًا لحركاتها وخصائصها ، وأبرع حدقًا في التعبير عنها . وتقوم كل أهميتهم باتصالهم المتين بالفكر الشامل الدائم الإبداع ، وكان قلب الإنسانية العظيم ينبض الوقت بعد الوقت في قلوبهم الصغيرة ، فيظلُّ صدى نبضاته متردداً في صرير أقلامهم . لذلك كانوا مازجين دماءً بدماء الأنام ، خالطين أنفاسهم بأنفاس بني الإنسان أجمعين ، شاعرين مع مراتب الخليقة بأسرها بالحاجة والتعاون ، والتوحد والتغاير ، والحزن ، والبكاء ، والسمو والحقارة ، بل شاعرين باقتدار الكون وعجزه المتتابع في كيانهم . ولذلك كانوا أنفع من الجنود وأحسن عائدة .

السيف قاهر معاقب ، أما الفكر فمتقف ملطف .

السيف يغزو الممالك داخراً كتائب وجحافل ، ويشهر الحروب واضعاً بين الإنسان والإنسان جدران حقدٍ كثيفة؛ أما الفكر فلسيفه خفة الهواء ، ولطف النسيم ، وهول الصواعق . وبذلك السيف الذي يدعى القلم يُشهر الفكر حربه المجيدة حرب الفرد على الجمهور ، حرب الروح على المادة ، حرب الحكمة على الزهو ، حرب الحصافة على الغرور ، حرب العدل على الطغيان ، حرب الكرامة على التطفل ، حرب الحق والواجب على التهجم والخنول ، بل حرب العمل والصلاح السائرة بالإنسان نحو صروح الارتقاء والضياء .

بالقلم الذي هو أداة البيان ، وبالقلم وحده ، يبرز كل شعب آدابه أي عصير روحه ، وهو عصير جزء من روح الإنسانية . ينتبه لنفسه باتصاله بقلب الإنسانية وفكرها ، فيلفتنا إلى أنفسنا وما كمن فيها من قوة إذ يصلنا بفكر الإنسانية وقلبها . لأن كل نفس فردية قيّارة ذات أوتار تجاوب كل قرار ، وتهتز لتعزف متعاونة مع جوق النفوس المهيّب . فان كان ثمة مشاهد بهاء خفيت علينا ، أو أناشيد طرب لم تطرق سمعنا ، أو ليج إحساس لم نذهب في غورها ، ما فتحنا إدراكنا للتأثيرات الآتية من الغريب ، أفراداً كانوا أم جماعات ، إلا اتسع الأفق أمامنا ، فأقبلنا على اكتناه معاني الحياة ، ودنونا من خفايا السناء ومكنونات

القوى . وليس أقدر في التقريب بين الشعوب من الإلمام
بألسنتها ، فنصير كأننا هي أيضاً بعد أن كنا نحن
فحسب . وبهذا الازدواج أو التضاعف تزودج أو تتضاعف
منا الخبرة والفتانة والإدراك ؛ وإلا فقل إننا نتسع فهماً ،
ونكبر روحاً ، ونسمو مطالب ، لأننا أصبحنا جماعة في
واحد . ألم يقل الشاعر العربي : إن كل لسان بالحقيقة
إنسان ؟

نعم ؛ إذا عرف امرؤ لغة شعب تلاشى في نظره ما
يحيط بذلك الشعب من غرابة وإبهام ، وكلما تقدم في تفهم
الآخرين إنجلي له تشابه النفوس للنفوس ، وعثر على ما بين
الناس من نسب الحاجات والنزعات والآلام والمسرات .
إذ ذلك يعلم أن الإنسانية واحدة في كل زمان ومكان .
ورغم الفروق والحواجز والعادات والاصطلاحات ، ورغم
اختلاف اللغة وتقاتل المطامع لا تلبث أن تظهر له بالتدرج
أخوة الإنسان للإنسان .

* * *

لئن كان لكل لغة آداب ، فميزة اللغة الإنجليزية أن
لها آداباً أربعمائة : الإنجليزية والإسكتلندية والإيرلندية
والأمريكية . ولئن كتبت جميعاً بالإنجليزية فإن لكل
روحها الخاص ومزاياها الخاصة .

وعندما نحن ، أبناء الشرق ، نستعمل هذه اللغة ذات

الفواصل الوعرة ، والمواقف الحادة ، فكأننا نتيبن في لحظة جهود الإرادة القومية التي حلت مع الزمن في مقاطعها ورناتها . ما أتمّ تلك الألفاظ قوة وأنفذها عزمًا ! إن كل ما فيها من صوت ونبرة وتركيب وعرقلة وقدرة مكثسبة من استعمالها المتواصل ، يسطو علينا فيجعلنا إلى حين بمائلين لجامعي شتاتها ، ويتناول روحنا الشرقية فيوحدها وقتًا مع الروح الغربية المضمرة فيه .

لقد كان يسرنا ويفيدنا جميعاً أن نستمع لدروس الآداب الإنجليزية في هدوء قاعة الدرس بالجامعة المصرية بعيداً عن دويّ المدافع وجلبة أخبار الحرب ، بعيداً عن حركات الاجتماع وضوضاء العالم ، بينما تقبل ليالي الشتاء بأسطة علينا رواق شفها المثقل بالأحلام والتأملات .

لذلك لا يمنعنا الآن تمتعنا بحمال الربيع من انتظار الخريف القادم حيث تعود ، يا سيدي ، إلى إلقاء محاضراتك القيّمة . سوف تكثر الحركة في الشارع كالمعتاد ، فيواصل المنجد جارنا العزيز دقّ المسامير العديدة في المقاعد الخشبية ، وتتابع السيارات والمركبات مرورها بلا انقطاع ، وتظل أصوات المدينة على ما هي هامسة متعالية هاتفة . ولكن سوف لا نغير ذلك التفاتاً ولا نهيه اهتماماً . بل نتفرّغ لسبر غور الروح الإنجليزي الجامع بين الأشكال والوضوح ، والامتياز والبساطة ، والحرية والخضوع ، والأنفة واللين - ذلك الروح الجذاب بماديته وروحانيته وقربه ومناعته -

سوف نسى العالم الخارجيّ سعادة بأنّ نعيش ساعة في عالم
المعنى العالي ، مستنشقين نسيماً عذباً تثيره ذكرى نوابغ
الماضي ، غائصين فكرياً وروحاً وانتباهاً في أوقيانوس
وحيٍّ وجمالٍ ورفعة تتكوّنُ أمواجه الفضة مما تعرضه
لدينا من أسماء أولئك الأماجد ، وأفكارهم العظيمة ،
ومصنفاتهم الخالدة .

الدهوع

مصر العزيزة التي سبقت الأقطار العربية نحو قمة الارتقاء ، مصركم أيها المصريون ، ومصرنا نحن السوريين ، قد بلغت في ارتقاها مرتبة رفيعة . وعلى ذلك شاهدان : الشاهد الأول هو أنه في وسط هتاف الوطنية الشامل ارتفع هتاف الإنسانية السامي . ارتفع صوت لا يتكلم عن ماضي الأمة ومستقبلها ، ولا ليعظم نوابغها وأبطالها ، بل ليزكّرنا بأحقر أبنائها العراة الجائعين . صوت الرحمة والإشفاق انضم إلى صوت الحماسة والفخر ، فرجعت صداه جميع القلوب ، وكان الشاهد الأول على وقوف مصر في مرتبة رفيعة . والشاهد الثاني : انا الشاهد الثاني ، ليس أنا بصفتي الشخصية ، ولا أنا وفاء سوريا المصرية فحسب ، بل أنا الفتاة الشرقية يشركها الرجل في جليل أعماله ويفسح لها مجال القول والعمل في الإصلاحات القومية . أنا تلك التي خفت صوتها دهوراً لأنّ الرجل كان كما كان . أما اليوم وقد كبر الرجل وتعالى ، فقد أوقفني في مكاني

ألقيت في الاجتماع الذي عقد في الأبرياء مساء ١٦ مايو سنة ١٩١٩ ، لإنشاء « ملجأ الحرية » ، إجابة لطلب الدكتور عبد العزيز نظمي الذي دعا إلى إنشاء ذلك الملجأ إبان الحركة الوطنية .

جاعلا صوتي يتصاعد حرّاً ويسطو قاهراً فعلاً ، لا لأنه صوت فتاة بل لأنه صوت الفرد الإنساني المكتمل ، وصوت عضو في المجتمع المصري الراقي .

كنت لابسة أثواب الحداد فاستبدلتها لأقف أمامكم . إنما يُلبس السواد حزناً على الموتى . ولكن الأمة التي تنبض فيها حياة جديدة تدفعها إلى تقدير كرامة المرأة ؛ الأمة التي ضمت إليها جميع عناصر النزلاء حتى جعلتهم شاعرين بأنهم أجزاء حية منها ؛ الأمة التي تذكر البؤساء في غلياب حماسها الوطنية ، وتنحني على التعساء في أخرج مواقفها التاريخية ؛ تلك الأمة لا يجوز لفتياتها لبس السواد ، بل خليق بهن أن يتسحن بالبياض النقي ، لون الصفاء والسعادة والهناء .

في هذا الاجتماع الفخم ، تسمعون من شعرائنا السحر الحلال ، ومن خطبائنا بليغ الأقوال ، أما أنا فاسمحوا أن أحدثكم في موضوع هو كل ضعف المرأة وكل قوتها معاً ، ألا وهو الدموع ..

أيها السادة والسيدات ،

إن للشعراء الذين في كل واد يهيمون لمحات وحي فيها يصدقون . هم الذين شبهوا الدموع بالآليء فما أتم هذا التشبيه مجازاً وحقيقة ! كيف تتكون اللؤلؤة ؟ هناك في البحار الحارة يعيش حيوان الصدف اللؤلؤي ، حتى اذا اصطدم بصخر أو بمادة أخرى صلبة تشقق منه الجسم ،

واستقرت في تلك الجراح ذريرات الرمل ، فتكونت عليها أثنى درر العالم . فما اللؤلؤة إذا إلا ابنة الأمل الطويل ، وثمره لوعة مستعصية ، وداء دفين . وكيف تتكون الدمعة ؟ ما أشبه حكايتها بحكاية اللؤلؤة إنه لا بد لكل أحد من الحصول على مجموع معلومات يتكفل بإيصالها إليه اثنان : الأحوال ، والبشر . وأهم تلك المعلومات وأبقاها في النفس لا يأتي إلا عن طريق العذاب والألم ، كما أن أعمق الكلام قد تأتينا من أحب الأيدي إلينا . وحينما ينجرح القلب تحت ضغط التأثير الشديد إذ ذاك تتكون لآليء الدموع في جراحه ، إذ ذاك تنهمر العبرات واحدة بعد أخرى ، كأنما هي دقات ناقوس صامت حركته يد الحزن ، فسالت دقاته درراً ذائبات .

إن للدموع أثراً ليس يمحي . قد ينسى المرء ساعات الألس ، ولكنه لا ينسى ساعات البكاء لأنها تلقته أعظم دروس الحياة وهي أهم مراحل ارتقائه . وقد يكون جاهلاً كل لغة وكل معنى ، غير أنه يفهم لغة البكاء ومعناها لأن جرة الحسرة واحدة في جميع الصدور ، وما كان البكاء إلا إرثاً مشتركاً بين بني الإنسان . على أن ما نسميه دموعاً ليس إلا جزءاً من السائل الدمعي العظيم الأهمية لحفظ الصحة . إن هذا السائل خفي تنشره حركة الأجفان على مرآة العين ، فيصقل منها الأعصاب ويحفظ المآقي من الشف والجفاف ؛ فإذا هطلت منه كمية كبيرة ، مرضت

العين ، وضعف البصر وصار معرضاً للذبول والانطفاء .
ومن جهة أخرى اذا انقطع السائل الدمعي حيناً أو أفرز
كمية قليلة ، فقدت العين تألقها البهي ولحقتها التهاب وتقرح .
كذلك تهبط كمية دمعية معينة إلى مركز حاسة الشم
حيث تمتاز بالهواء الداخلى إلى الرئتين فتفنيه من الرطوبة
المقدار اللازم .

إني أستميح عفو السادة الأطباء لتهمي على موضوع
ليس لي . ولكني أرى أنّ الدموع الكثيرة في عيون
البؤساء عنوان الفناء . أما الدموع القليلة في عيون السعداء
فضرورية لجسم الاجتماع ضرورتها لجسم الإنسان . أهل
الفاقة من الأمة عينها الرمداء ، وأهل اليسر عينها النجلاء .
فإنّ لم يبك السعداء يوماً أظلمت منهم البصيرة ، وتجرّ
الغواد ، وجهلوا معاني الكآبة وحقيقة الإخاء . وإنّ لم
ترطبّ دموع العطف هواءً يستنشقه المجتمع فسد الهواء
وامتلاً بفحيج الأفاعي وبذور الشقاء . وان لم تدارِ الأمة
منها العين الرمداء انحل التضامن واختل التوازن وامتدت
القروح قليلاً قليلاً إلى العين النجلاء .

قال الدكتور ويلسن في خطبة ألقاها في إيطاليا :
« إنّ قلب العالم يخفتق اليوم ليس في الخنادق وميادين
القتال فحسب ، بل هو خافق في معمل العامل ، وكوخ
الفلاح ، وحقل الزارع » .

صدق الرئيس المحترم ، ولكنه تكلم كفيلسوف فقط .

إن قلب العالم خافق ، أوجع خفقاته في صدر العامل
 الذي لا عمل له ، والزارع الذي لا حقل له ، وفي صدر
 اليتيم الذي له جسم يعذبه ، وليس له من يهتم به ويحنو
 عليه . إن قلب العالم خافق ، أوجع خفقاته وأشدّها
 هولاً وخطراً في صدور غلمان الأزقة ، ونزلاء الأرصفة من
 شيوخ ونساء وفتيات وأطفال يتسولون ويتأوهون ، ونحن
 نعرض عنهم لانهم ليس فيهم ما يتطلبه ذوقنا المتعجرف
 من أناقة وكياسة ! أنا ما رأيت عمارة تزخرفها يد الباني
 إلا خنقتني الغصات إشفاقاً على من لا مسكن لهم . ولا
 وقع نظري على الأثواب النفيسة والجواهر المتألقة إلا التاع
 قلبي على أيتامٍ ليس عندهم ما يلبسون . ولا دخلت مقاصف
 سهراتنا وأفراحنا ، أو شهدت أفواج الوافدين على (سولت ،
 وجروبي) وجمال الملاهي والسمر الكثيرة ، إلا ضاقت مني
 النفس كمدأ على فتيات مصريات طالما رأيتهن باحثات بين
 ما تلقيه المنازل الكبرى عن فتيت يصلح للغذاء . عن
 فتيت يصلح للغذاء ؟ أيقال هذا في مصر ، ويجري مثل
 هذا في مصر أمّ الجود والحيرات ؟ أو اه ! إنك لتتهتين
 الآن يا شهامة الرجال ! إنك لتحزين أيتها الأريحية المصرية ،
 وتقومين محتجة على قولي . إن هذا القول الأليم أثبتته
 حزينه أنا أيضاً ، وباسم السخاء المصري أحتج صارخة :
 إن هذه الفواجع لا تجوز ولا ينبغي أن تكون في مصر !
 - حتى أنت يا عيون الظلام ، أيتها الكواكب المهدّنة

بمظمة الوجود وخلود الضياء ، يا طالما رصدتك وقد خلقتك
في قلب الشقي حروفاً وفي عيني البائس دموعاً ١ -

هاك الشوارع الوطنية والأحياء الأوروبية جنبها طولاً
وعرضاً ، في كل مكان تلقى الأعضاء المشوهة والعيون
المظلمة وذل اليد المستعطفية ، وفي كل مكان ترتفع العين
المصرية دامعة اسلوا الأطباء من ينشر جرائم الأمراض ،
وسلوا المصلحين من يقلق الأمن والنظام ، وسلوا المفكرين
عن ذاك الشيء الذي يسمونه 'سرطان الاجتماع' ، وسلوا
رجال القضاء عن أكثرية المجرمين . بل سلوا تلك اليد
المجهولة التي تنشر الراية السوداء على السجون ، وسلوا
الجلاد أيّ الأعناق تمر بين يديه لتحضنها حبال المشائق...
المشائق ! كلمة رهيبية ! ميتة ذليلة يشتريها الجاني بما هو
جان . يجره القنوط والجهل والحاجة والعادة إلى ارتكاب
الجريمة ، فيلقاه عدل المجتمع بالعقاب الشديد . ولكن
هذا المجتمع الذي يقتل الجاني بأنانيته وإهماله قبل أن
يقتله بعدله ، هذا المجتمع الذي يعدم نفس الجاني مرات
كثيرات قبل أن يعدم جسده مرة واحدة ، ترى لماذا لا
يسأله ولا يطالبه أحد ؟ لأنه قوي قادر غني ؟ ألا الله
در الشاعر القائل :

والعدلُ في الأرض يُبْشِي الجنَّ لو سَمِعُوا
بهِ وَيَسْتَضْحِكُ الأَمْواتَ لو تَنْظَرُوا

فَالسَّجْنُ وَالْمَوْتُ لِلْجَانِينِ إِن صَفَرُوا
 وَالْمَجْدُ وَالْفَخْرُ وَالْإِثْرَاءُ إِن كَبُرُوا
 فَسَارِقُ الزَّمْرِ مَذْمُومٌ وَمُحْتَقَرٌ
 وَسَارِقُ الْحَقْلِ هُوَ الْبَاسِلُ الْخَطِيرُ
 وَقَاتِلُ الْجِسْمِ مَقْتُولٌ بِفِعْلَتِهِ
 وَقَاتِلُ الرُّوحِ لَا تَدْرِي بِهِ الْبَشَرُ (١)

ألا يا أيها المطربونا بنشيد الحرية العظيم ، هلا ذكرتم
 أن الحرية جناحين ؟ في قدم الأمة أغلال السقام وقيود
 الهوان فكيف بلا تكسير هذه الأثقال تطيرون ؟ ألا قفوا
 أمام المجرم خاشعين ! إنه كان في حاجة إلى العطف والمؤاساة ،
 لكن المجتمع احتقره ونبذه ، فاندفع يتدهور في هاوية
 الشرور . من منا يدري كم أهدبت الحسرة فؤاده ، وم
 أدمت العبرات مقلتيه ؟ ألا احنوا الجباه أمام قوى
 حصرت فيه ولم تهتم به يد الرعاية لتبرز إلى الوجود خيراً .
 احنوا الجباه أمام فتيات الشارع البائسات ! إن فيهن
 شعوراً لطيفاً تنهشه كل لحظة أنياب الفاقة ، وفي عيونهن
 أشعة الذكاء والحنان يججها ليل المسكنة وظلام الدموع ،
 وبين شفاهن كلمات المحبة منسيات لأنهن لا يستعملن إلا
 كلمات الاسترحام والاستعطاء ؛ إنهن بحر البشرية العميق
 الوجيع ! احنوا الجباه لذكر من ندعوهم الرعاع والغوغاء !

(١) من كتاب « المواكب » لجبران خليل جبران .

إن عندهم قلوب رجال ونفوساً أبية لو كنتم لها مهذبين .
إن اليد منهم لم تخلق للتدمير والنهب والبطالة ، وأنتم
لمطالبون يجعلها يداً أمينة نشيطة عاملة لخير البلاد ، يداً
تحمل بكفاءة وكرامة القلم العربي ، والسيف الشرقي ،
والعلم المصريّ المقدس ! (تصفيق حاد متتابع) .

إني أقبل هذا التصفيق الحماسي أيها السادة ، أقبله
بفخر ، وأقدمه إلى الدكتور نظمي بك والقائمين بهذا
المشروع الخطير . أقدمه إلى الأيدي الرحيمة التي ستقلب
تحت لمسها دموع التعساء بسامات ، وإلى المحسنين الذين
ستقف عطاياهم في وجه الفاقة سداً منيعاً . لقد تصافحت
مصر وسوريا قبل اليوم في مواقف أدبية كثيرة ، ولكنها
لم تقف جنباً إلى جنب في أشرف من هذا الموقف ، موقف
الدعوة إلى البر والإخاء . وتصفيقكم هذا أثنى ما عندي
في هذه الدقيقة فأقدمه تذكراً ولاء وإعجاب وإجلال من
سوريا المصرية إلى مصر الكبيرة البدولة الأريحية !

أيها السادة والسيدات ،

إنما النيل مدين بفضلها لسحر الدموع . ضاع الإله
اوزيريس يوماً فالتاعت الإلهة إيزيس لفراقه ، وجلست على
شفة النهر تبكيه . إذ ذاك اضطربت أعماقك ، أيها النيل
العظيم ، فاندفعت متدفقاً جاعلاً من ربوعك التربة تهباً ،
تاركاً سهولك التاريخية في ربيع دائم لكل عام يهيجك
ذكر دموع آلهة الأسرار والأشجان فينتظم منك الفيضان

وفيتاً . وستظل على العهد أميناً ما بقي أبو الهول محققاً
 في الفضاء ، وبقيت الحجره منبسطة في عقيق السماء |
 من منا لم يبك ولو مرة كربة الوادي ؟ أيُّ بشر لم
 يصف إلى بحر العبرات الإنسانية دمة واحدة تعلّمه نبل
 الإحسان وعذوبة الإخاء ؟ ألا إنَّ كلتنا عليل سقيم ، وفي
 قلبه حروق الزفرات والأحزان . فانهضي الساعة يا ذكري
 الدموع أمامنا جميعاً ! إنجلي يا دموع الافراح ودموع الأتراح ،
 دموع العزّ ودموع الذلّ ، دموع الفراق ودموع التلاق ،
 دموع اليأس ودموع الرجاء ! أنتِ التي تثيرها فينا نواذب
 الأيام وإيلام الغرباء ، وأنتِ التي تضعها في عيوننا أسماء
 الأحباب . دموع الماضي الذي لا ينقضي ودموع الحاضر
 القوي بتأثيره . كلِّك ، كلِّك أيتها الدموع التي لا إسم
 لكِ في لغات البشر ، لأنك نثرت الأرواح الغاليات ،
 وأجزاء من العمر متطايرات ! إنجلي لتنبهي كل ما يُجمع في
 الروح المصري من مجد الفراعنة وعظمة الإسلام ، إنجلي أمامنا
 متوهجات لاذعات كالنار ، ليحوّلك الألم رافة وكرماً |
 إذْ ذاك تذكر اليد المصرية أن النيل قد طبع عليها رسم
 سخائه ، فتتناولك الهمم السماء وتبلور كلا منك حجراً
 متيناً يقوم به « ملجأ الحرية » |

تأبين باحثة البادية

سيداتي ،

لما اجتمعتُ باحثة البادية للمرة الأولى في ١٩١٤ ،
بعد تصفح مجموعة «النسائيات» لم أستشعر بأنه قدر عليّ
أن أقف لتأبينها عمّا قريب . يومذاك لم أشعر إلاّ بجاذب
تخطّى بي من دور الإعجاب بقلمها إلى دور الميثل إلى
شخصها ، لأنها كانت من الذين خصتهم الطبيعة بقوة
مغناطيسية تجذبُ الغريب فيفطنُ لنفسه وقد وجد فيها
مكاناً خالياً ينتظرهم منذ زمن طويل . وليس موجد تلك
القوة ما يسميه البشرُ جمالاً وذكاءً أو لطفاً وظرفاً ، بل
إنّ مستودعها جسمٌ أجوف قائمٌ في الجانب الأيسر من
الصدر ؛ ذلك الجسم الذي ما ذكره حتى أكثر الناس
طيشاً وزهواً إلاّ وطأطأ الرأس كمن ينتبه لمعنى عميق
من أقدس معاني الحياة

إنّ عصرنا عصر الاختراع والآلات . فبالآلات هبط
الإنسانُ إلى أعماق الماء ، وجعل له أجنحةً تسابقُ طير

ألقيت في الحفلة التي أقامتها السيدات المصريات برئاسة حرم
شعراوي باشا في فناء سراي الجامعة المصرية بمناسبة مرور عام على
وفاة الفقيده يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٩ .

السماء ؛ وبها استعبد عناصر الأرض ، وكشف أسرار الكهروياء . من البواخر العظيمة التي تحذف الأبعاد وتلاشي البحار إلى الساعة الذهبية الصغيرة التي نقيس بها الزمان ، في كل من أحوالنا نرى الآلات بمثابة دوراً مهماً . لكن هذا الجسم الأجوف القائم في صدر الإنسان ، هذا القلب البشري العجيب ، ما زال أتم الآلات وأقواها ؛ بل هو أقدر من أعظم القواطر الحديدية على الإطلاق ، إذا جعلنا المقابلة على نسبة الحجم الصحيحة . آلات الفولاذ والحديد ، تلك الصناديد المعدنية التي تترشح الجبال ، وتدمر المدائن والحصون ، تمل العمل وتطلب الراحة ؛ وهذا الجبار الصغير المخلوق من دم ولحم لا يعتره إعياء ولا سكون لأن في وقوف حركته انتهاء الحياة الجسمية ، وفي سكونه وراحته شقاء العواطف البشرية .

وما كانت قوته الوحيدة في تأدية وظيفته واستطراد النبض ليل نهار على حساب ٧٢ مرة في الدقيقة ، ومئة ألف مرة في اليوم ، وأربعين مليون مرة في السنة ، بل كانت قوته الكبرى في ذلك المعنى الملتبس الشامل الذي أطلقه عليه الثيوصوفيون والشعراء إذ جعلوه هيكل العواطف والرغبات ومنهل الحب والإشفاق والمكارم . ليقول العلماء ما شاءوا من أن العواطف تتولد في الدماغ . أما نحن صغار الخلائق ، فحسبنا شعوراً بأن في رياض القلب تغرد أصوات الطرب ، وترفرف أجنحة الهناء ،

ساعة نكون من السعداء . وإنّ القلب منا يسمي صحراء
محرقة ، تجولُ فيها لواعج الأحزان ، ويتعالى في تيهها
نحيبُ الوداع والحسرات ، عندما نكون من التعماء .
حسبنا علماً أنّ هذا القلب يُسير العالم وإنّ من كان كبير
القلب فهو في الحقيقة قائد العالم .

لقد تصلّب قلبُ الرجل قليلاً - أو كثيراً - في
حرب الاقتصاد التي ما فتئ يشهرها في ميادين الحياة ،
فلحق ببعض عواطفه جفافٌ وتوتّرهما من مقتضيات
المنافسة والجهاد . على أنّ القلب ما زال مملكة المرأة ،
وفي هذه المملكة الضيقة الرحبة تجتمعُ القوة والدقة
والكآبة والصفاء ، ويختلط التأملُ بالأحلام والقنوط
بالرجاء . عندما لا يتكلمُ من الرجل غير صوت الطمع
والتهديد والمفاخرة تسمعن في صوت المرأة أينما كأنما هو
بقية زفرة أو تنمة بكاء . وحينئذ يمتازُ الرجل بإدراك ذروة
السؤدد ، ونيل بعيد الغايات ، ترينَ المرأة منحنيةً على
نفسها كمن ينحني على جرح بليغ ، ترينها منحنية على قلبها
لأنّ شيئاً يظلُّ ناعماً فيه . وسواء في ذلك تلك العائشة
في وسط الأبنية والتبجيل والإعظام ، وتلك الحقيرة التي
تتقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان .

كان هذا القلب القدير يتلظى مضطرباً في صدر باحثة
البادية ، على مقربةٍ من ذكائها الفطري ، ولم تكن ألفاظها
إلاّ شرار وميضه . به اختبرت البيئة المصرية في كثير من

مظاهرها ودرست المرأة المصرية في جميع أطوارها . ولما أن هالها ما شهدت من ذلٍ وتماسةٍ ، غمست قلمها في مدادٍ هو سيّال قلبها الناري ، وكتبت فصولاً خالداً . إن محاسن التنميق والإنشاء تُعجبُ وترضي إلى حين ، لكن يا لسرعان ما تُدرج تلك المحاسن في أكفان النسيان ، لأن الطبيعة البشرية لا تحتمل الإعجاب المتواصل . أما الكلام المنطلق من القلب كقطع متقددةٍ ، فيدخل في القلوب مبائرة بلا وسيط ويمتزج بها لأنه يعبر عنها ، يمتزج بها حتى يصير جزءاً منها يأبى التفرق والانفصال . وكما أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص الملل القومية ، كذلك رأت ببصيرتها النقية ، أصوب طرق الإصلاح اعتدالاً ، وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعي ، وقاريء « اللسانيات » يقف على خطتها الإصلاحية الرشيدة حيث لا يكون الرجل جائراً مستبدّاً ، ولا المرأة ساخطة متمرّدة ، بل يتصافى الإثنين فتصير هي له أخلص الأصدقاء وأرفى المساعدين ، ويصبح هو لها أخلص الأصدقاء وألين المرشدين . فيسيران في سبل الحياة ، وقد جعلها التفاهم متغلبين على المصاعب ، متعاونين على تبادل المنفعة والسعادة . وذلك أقصى ما ترمي إليه العائلة الاجتماعية في كلِّ زمان ومكان .

كانت الباحثة زوجاً لعبد الستار الباسل واستميجكن

بالوقوف قليلاً عند هذا الإسم . أذكرن أنها كانت تكتب في سنة ١٩٠٧ و ١٩٠٨ و ١٩٠٩ ، وتصورن حال ذلك الوسط منذ اثنتي عشرة سنة ، يوم كان القوم يرمون قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى هذا الاثم الفظيع الذي يدعى المناداة بإصلاح المرأة !

إن إعجاب الناس بأمريء لا يسلم من لازم متعديّ هو انتقادم له . فإذا كان الجمهور شديداً على الرجل يحسب نقضه بعض باي العادات عدواناً لبني الإنسان ، فما قولكنّ في ظهور امرأة ذات رأي شخصيٍّ وذاتية حرة في ذلك الوسط الرجعي ؟

يجب أن يكون الوسط راقياً جداً ليقدر الفرد الراقى وإلاّ أهمله ، وُعدّ نبوغه جنوناً ، ورأى في توجهه من التقهقر والانحطاط وقاحة وشروداً .

غير أنّ الباحثة كانت على حكمة مكنتها من استخراج الخير من الشر . فبدلاً من أن يغضبها تعنت الناقدين ، تجلت لها الحقيقة كما تتجلى أحياناً في لحظات الألم ، ففهمت أنّ الطريقة المثلى لتهديب الرجل وإعلاء مداركه ، هي تهديب المرأة وإعلاء مداركها ، وأنّ الواسطة الفريدة لجعل الشعب المصري حرّاً نبيلاً عظيماً ، هي تحرير الأم من قيود الغباوة والخنول ، وإفهامها جلال النبل القومي والعظمة الوطنية .

ولقد وجدت في قرينها منشطاً كبيراً .

إنه كان في وسعه أن يحطم قلمها بإشارة صغيرة ،
وبكلمة واحدة كان يستطيع إسكات ذلك الصوت القمعال .
بيد أن عبد الستار الباسل عربي صميم ، وله من وراثته
الكرمية ما يذكّره بما كانت عليه نوابغ النساء العربيات
من حرية وأنفة ، ففاخر بأن تعيش في ظله من تماثلهن
عزة وبيانا .

فليسر إليه الآن شكر المرأة المصرية مقرونا بأي
الثناء !

أما أنت ، يا أم الباحثة ، فلك أنقى ما في القلوب
من احترام وإجلال ! وساعة تذهبين لزيارة حفي ناصف
الراقد هناك في مدينة الذين رحلوا ، قولي له : إن اسمه
مجيد مرتين : مجيد بعلمه وفضله ، ومجيد لأنه والد امرأة
مجيدة .

هذا كل ما أردت أن أقول ، يا سيداتي .
وحول القلب الثقي الذي كان يذوب إشفاقاً على المرأة
الضعيفة المعذبة ، ويلتهب غيرة على مصر والمصريين ،
حول الصوت الصامت الذي طالما ارتفع خطيباً ، والقلم
الجامد الذي طالما تحرك كاتباً ، اجتمعنا اليوم ، المسلة
منا والقبطية والسورية ، لنحيي أختنا الخالدة ولنمزج
ذكرها بذكر هذه الأيام المملوءة حساسة وأحزاناً .

نعم ، المرأة المصرية التي انبرت بالأمس تهتف في الجماهير
هتاف الوطنية والذعر ، قد عقدت اليوم في هذه الجامعة

الأهلية المباركة ، اجتماعاً معزياً في كتابته ، سامياً في
معناه ، وحيداً من نوعه في تاريخ النهضة الحديثة لبنات
هذا الوادي العظيم !

فليحمل الهواء حديث اجتماعنا إلى من لم تحضره من
أخواتنا في القاهرة ، وفي الأرياف ، وفي الثغور ؛ ولينقله إلى
نساء سوريا والعراق ، وسائر الأقطار العربية ، والأقطار
الغربية ، التي ينشدُ نفرٌ من نزلنا أبياتاً نظمت بلغة
القرآن ! ولتردد النساء اسم المرأة المصرية الكبيرة « باحة
البادية » فيكون هذا الإسم عنوان نهضتنا النسائية الجديدة
وعربون تضامن الشرقيات على رغم تباعد الديار واتساع
البحار !

الشجرة

هناك في قلب الصحراء يستظلُّ أهل البادية بالشجرة
اليئيمة ، فيتذوقون بعد القحط والضنى خضرة الخائل ،
وهنا المروج . ثم يودعونها وقد أوجد الشكر عبادتها في
قلوبهم ، فيعلقون على أغصانها ما في العنق من قلادة ، وما
في المعصم من سوار .

* * *

بعد أن لبث الفكر العربيُّ حارس جنات العلم والأدب
قروناً طويلاً ، عاد فتجدُّبُ نخصبُ الأرضين نحو ثلاثة
قرون . إذ ذاك جئتُ ، يا صاحب اليوبيل ، فكنت في
الصحراء اليد الغارسة والشجرة المغروسة جميعاً . فتم اليوم ،
أيها البستاني الكبير ، وراء طيات وشاح الخلود ، بينما
يتبارى أبناء سوريا حول ذكرك منشدين ، كما يجثو أبناء

أرسلت هذه الكلمة إلى لجنة الاحتفال باليوبيل الثوي لبطرس
البستاني ، وكانت اللجنة المذكورة قد وزعت أوراق الدعوة على
كتاب العالم العربي ليشتروا عن بعدٍ بذلك الاحتفال الذي أقيم في
الجامعة الأمريكية ببيروت في آخر شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة

. ١٩١٩

البادية أمام الشجرة الظليلة شاكرين . نم اليوم عظيماً
جليلاً ، يا بستاني حبّات الفضل والعرفان ، بينا هم
يعلّقون على فروع مجدك الباذخ قلائد الثناء وعقود
الشكران !

ظل الاله الثاني

أيها السادة والسيدات ،

ليست هذه زيارتي الأولى لمدينتكم العامرة ، لأنني تشرفت وجئتها قبل الحرب بشهر لمثل هذا الاجتماع . وإن لم يكن اليوم بينكم من يذكر الفتاة التي كانت يومذاك طفلة في عالم الفكر ، فانها هي ما زالت تذكر بارتياح ما لاقته من أنس البشاشة ، وحسن الضيافة . وبعد أعوام ذاق فيها البشر ما ذاقوا من طعوم الأوجاع ، أراني سعيدة بالعودة ، وأشكر لرئيس هذه الجمعية المهام ، وحضرات أعضائها الأفاضل ، دعوتهم ، وأتوسع في الشكر قليلا لأصل إلى الاستاذ سر كيس الذي انضم إليهم في هذه الدعوة التي مكنتني من الهيم لأجدد تذكاراتي عنكم وأحييكم مرة أخرى .

على أن في تحيتي الواحدة عناصر شتى : فيها السرور برأى الرجل والمرأة متسابقين في إتيان المعروف . وفيها الثناء على نخوة القائمين بأمر هذه الجمعية أمحسنين كانوا أو عاملين . وفيها الاعتباط بمشهد المصري والسوري متقاربين

أقيت في حفلة جمعية الاتحاد والإحسان السورية - للرجال والسيدات - بمدينة طنطا في ٢٩ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠ .

متأخين في هذا النادي . ولكن فيها خصوصاً عنصراً أفتياً يتسرب بارزاً في نبرات الخطيب وسطور الكاتب : هذا العنصر هو عنصر الأمل ، عنصر الحياة ، المتولد من اليقظة المصرية الحديثة .

خطوات واسمات خطت مصر في هذا العالم ، لا سيما في شأن المرأة . خطوات ترقبها بشغف وفخر نفوسنا المرقوبة من مياه النيل المقدس ، المستنشقة هواء ما فتئت تبعث به آلهة الأهرام إلى أحفادها مصريي القرن العشرين . وبهذا الأمل الذي يرى غد مصر عظيماً خالداً كأمسها - بهذا الأمل السعيد - أرفع صوتي هاتفة : لتحي مصر الحديثة !

أيها السادة والسيدات ،

على مقربة من الحياة السياسية والاجتماعية حياة أهم لأنها بها يتكيفان ، وهي الصفحة التي تنتقش عليها جميع أعمال العمران . إلا أنها تتناول الناس فرداً فرداً دون أن تشمل الأوقام دفعة واحدة ، وبلحظة واحدة ، كما تفعل الحماسة الوطنية والحميات القومية .

تلك هي الحياة الاقتصادية ، وقوامها المال الذي يجعل الحقائق الخيالية حقائق محسوسة ، ويملاً البسيطة ببهجة المدنية ومنافعها ، وقد دعاه السيد المسيح الإله الثاني . وكما أن الله عز و علاضداً نسميه روح الظلام ، أو الشيطان ، كذلك للإله الأرضي ، الإله الثاني ، ظل يتهادى بين

القصور والأكواخ على السواء ، ويهدد جميع الناس وهم أبدأ
 منه هاربون ، ذلك هو شبح الحاجة ، شبح الفاقة .
 إنه لشبح هائل نرى خيال قبضته السوداء في صفحات
 التاريخ وإليه ترجع أسباب الاضطرابات ، والقلق ، وكل
 ثورة شبتت في بلد فتركت صروحه أنقاضاً . وليست
 الفواجع العامة الكبرى بأشد هولاً من الفواجع الفردية
 الصغرى . فقد عذب هذا الشبح أكثر أرباب الفكر والعلم
 والفنون ، وطالما أدمى أجنحة النبوغ بمخالبه ، وأوثقها
 بكتائفه ، وجعل صاحبها يعيش ضيق اليد ، مضعضع الشأن ،
 ويقضي جوعاً وغماً . وإن لم يهبط الفقر بالجميع إلى هذه
 الدركة المدممة ، فإن الخوف منه يظل مستبداً بالناس
 استبداداً ، ويحتل حياتهم احتلالاً لا جلاء له يرجى . فذلك
 الوجه العابس هو وجه من يحاول التوفيق بين دخله وبين
 مقامه الاجتماعي ، أو راحة من يجب ؛ وتلك الجبهة المنحنية
 المقطبة ، هي جبهة الشاب الذي يكده منذ أعوام ليخطو
 إلى الأمام ، ولكن المال حاجته ، ليرسم على باب الدهر
 إشارة الظفر ؛ وتلك العيون التي تطوف فيها خيالات القلق
 والهواجس ، إنما هي عيون من عرف عز ثروته الفكرية
 والشعورية من جهة ، وعوزه الدليل إلى الدرهم من جهة
 أخرى ؛ وكمن عمل ممقوت وأمر مستهجن ، بل كمن
 مكر وخيانة ودهاء ، قد يأتيها المرء مرغماً وما كان الداعي
 إليها غير الحاجة أو تلافى الوقوع بين مخالب الفاقة .

فإذا كانت هذه حال المتوسط والغني أحياناً ، فماذا نقول في أولئك الذين لا يطالبون إلاّ بنصيبهم مما تقبته الأرض من غذاء ، وتدرّه من شراب ؟ ماذا نقول في أولئك الذين أثقلتهم الحياة بمحاجات الأحياء وبخلت عليهم بما يقوم بتلك المحاجات ويسد منها الفراغ ! ماذا نقول في عبيد الشقاء الذين لا يعلمون لمساذا يميون ولأيّ غاية يتألمون .

ما أطيب الألم ، أيها السادة والسيدات ، إذا كان ذا نتيجة مخصبة ! ما أحبّ يد الشدة ، سواء أكانت يد حال أو يد إنسان ، التي تلمننا لترشدنا وترقينا ! إنما في الجهاد والألم قيمة الحياة ، والدموع الراسبة في أعماق القلب تذيب منّا الغرور والكبرياء وتأتينا بالخبرة العجيبة التي تدنينا من جوهر الأشياء ، وتخرج منا الحكماء والأنبياء . فللحياة فضل علينا في كل جهاد تخرجنا إليه ، وفي كل حرمان تشعرنا به ، ما دامت العقبات والصعاب واسطة لاتساع المدارك وإثراء الملكات . فما تجيء الكوارث وتروح إلاّ ونحن كذلك البحري الذي كافح الزوابع ، أو كذلك الجندي الذي خاض معامع المنايا ، فخرج منها قوياً ظافراً . بيد أنّ إزاء الألم النافع والجهاد المثمر نوعاً آخر من الألم يقتل الذكاء ، ويقطع أوصال الأمل ، ويضع بين شفتي الحيّ طعم الأكفان والقبور . ذاك هو الألم العقيم الذي لا نتيجة له كآلم المعدمين العاجزين الذين لا يعولهم أحد ولا

يجبهم في الدنيا مخلوق . حتى اذا تجمّد ألمهم ياساً ، وتحجّر
 حقدأ ، والتهب كرها انفجر بين الأمم حمماً وبراكين تدعى
 الاشتراكية المتطرفة ، والبلشفية ، والفوضوية ، والعمدية .
 فيهب دعاتها منادين بالإخاء وما كانوا متأخين بغير التمرد
 والجهل القتال ، والرغبة في سحق من هو فوقهم طمعاً في
 ماله وجاهه . فيقبلون الحكومات ، ويقلقلون الأمان ،
 ويلغون الأنظمة ، ويسلبون الممتلكات ، وينصفون طائفة
 ليلظفوا طوائف . كل ذلك باسم المساواة .

وما هي النتيجة يا ترى ؟

يوم تندك عروش الأفراد وتقوم على أنقاضها أبنية
 الأمم ، يوم يتغلب العامل على صاحب رأس المال فيحرجه
 إلى ما يشاء وما فيه يرغب ، يوم تتمزق أنظمة الأمم
 لتسن أنظمة الغد ، إذن هل تتحوّل أنظمة الطبيعة ؟
 كلا ! إثنان في الكون لا بدّ منها لحفظ موازنة الكون
 وإن تغيرت منها الأسماء والأجناس : كبير وصغير ، تابع
 ومتبوع ، سائد ومسود ، ظالم ومظلوم ، مفترس وفريسة ،
 هذا هو نظام الطبيعة العنيد ! ومن بين هؤلاء المتمردين
 الثائرين ستكوّن نواة تسود شيئاً فشيئاً ، فيمتد تحتها الذل
 والتعاسة من جديد ، ويثور قوم آخرون ، وتعود الفاجعة
 التاريخية مرّة أخرى ! يقولون إنّ الطبيعة أمّ ، فيا لها من
 أمّ عنية ، تسعد ولداً لتشقي أولاداً ، جاعلة حضنها
 الرحب ساحة لأشدّ المعارك وأفظع الحروب !

لقد مرّت ملايين الأعوام ، وألوف الدهور ، والطبيعة
صماء لا تلتين لصراخ الضعفاء وزفير المتوجعين ، ونبضات
قلبها الكبير لا تضرب إلاّ على وفق نبضات القلوب
المنتصرة ، وكان أصواتها الكثيرة تهتف للصاعد سلم الغلبة،
وتشجعه فيدوس على أعناق المنحدرين متخذاً من جماجمهم
مراقي يصل بها إلى القمة المنشودة . هذا هو ناموس تنازع
البقاء وبقاء الأصلح : للقوي البقاء وللضعيف الفناء . ناموس
جائز إلاّ أنه قاهر وأحكامه ثابتة لا تتغير . ولكن ، ألا
سُكبت عليك البركات يا قلوباً سمت بكرمها ، فأدركت
أنّ فوق نظام الظلم نظام الرحمة ! وأسبغت عليك النعم ،
يا أيدي الشفقة والإحسان ، لأنك تكوّنين الحلقة الإنسانية
الذهبية المتعالية على جور الطبيعة طموحاً إلى عظمة الألوهية !
عرفتم ذلك ، أيها القائمون بأمر هذه الجمعية المباركة ،
فقمتم تساعدون بقوة المال ، وتسعدون بعطف المحبة . إن
لرجال طنطا إسماعطراً غير أننا نفاخر باهتمامهم بالخير ،
وإغاثة الملهوف أكثر من مفاخرتنا بما لديهم من ذكاء
وجاهة . وأنتن ، يا سيداتي نساء طنطا ، مشهورات عندنا
بالجمال . غير أنّ عذوبة الحنو في المرأة أجمل من جمال
الوجه وأبقى . وقيامها بالواجب نحو الآخرين أشرف من
المطالبة بحقوقها . وحقّكن أنّ تفعلن الأمرين معاً . طالبن
بالمقول من تلك الحقوق فلا يبخل عليكم بها ، لأن للرجل
العريق في السيادة جميع صفات السيد من كرم شامل ، وعقل

راجح ، وصدر رجب ، وعدل تام ؛ ونجاح المرأة متوقف على مهارة الطلب ، وعلى كيفية التصرف في الحرية المعطاة لها قليلاً قليلاً .

ولكن المطالبة بالحقوق ، وإن حلالاً ، فهي دون أعمال البيرّ قيمة ومقاماً . تلك أمانة وهذه غيرية . تلك أخذ وهذه عطاء . والمعطي فوق الآخذ دوماً . تلك خصام وكفاح وهذه أجلى وأجل مظهر للمفاداة الأخوية . ولئن كان تنازع البقاء واسطة لارتقاء الحيوان ، كما قال هكسلي ، فإن المفاداة والتعاون أحد سبل الارتقاء للإنسان . هاكم النيل ماداً يبدأ من أياديه البيضاء في مدينتكم ليروي الأراضي العطشى ، فبديهي " أنت تمثّلوا به باسطين يد الكرم الأخوي في مجاهل التعاسة . وفي وسط ما يملأ العالم اليوم من دماء ودمار وخوف وضغائن . في وسط الصراع القائم بين الشعوب والشعوب ، وبين الأمم والحكومات ، وبين الدرجات الاجتماعية على اختلافها ، في وسط هذه الزلازل المتكاثرة مهددة صرح المدنية بالخراب ، تظلّ جمعيتكم هذه نوراً من الأنوار الطاهرة ، المتألقة في سماء الحب الإنساني ، مُنسية ما يحيط بها من ظلمات الفاقة والأحقاد والشقاء !

فهرست

الصفحة	الموضوع
٧	حفلة « الكوخ الاخضر »
١٠	حفلة بكفيا
١٧	تكريم خليل مطران
٢٥	التعليق على « الشاعر البعلبي »
٢٩	المرأة والتمدث
٤٢	في طنطا
٥٢	العجائب الثلاثة
٦١	سوريا الجائحة
٦٨	حفلة « ثمرة الاتحاد »
٧٢	البعث الهقيمد
٨٠	وداع الاستاذين
٨٥	الإخاء
٩٦	فضل الآداب
١٠٣	الدموع
١١٢	تأبين باحثة البادية
١١٩	الشجرة
١٢١	ظل الإله الثاني